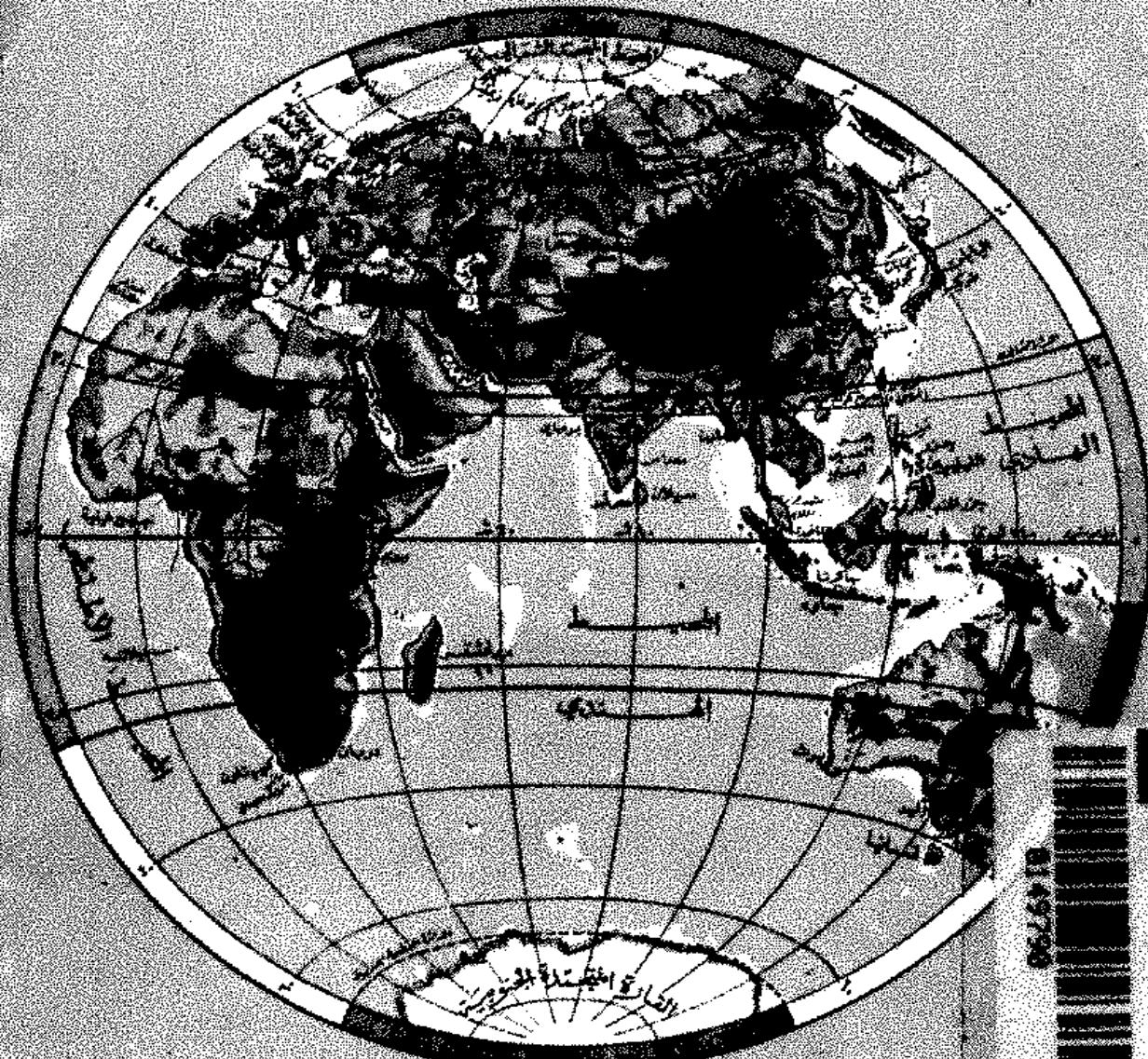


أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالحة على مصر وعالم البحر المتوسط آثار القرن السادس عشر



دار المعرفة
—

فاروق عثمان أباذه

دكتور

أثر تحول التجارة العالمية

أثر تحول التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح على مصر
وعالم البحر المتوسط آنذاك، القرن السادس عشر

للكتور

فاروق عثمان باشا

كلية الآداب - جامعة المنيا

الطبعة الثانية



دار المعرف

الناشر : دار المسارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ح م ع .

مقدمة

تعتبر حركة الكشوف الجغرافية التي تم شطر كبير منها في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي من أهم النتائج العملية للنهضة الأوروبية الحديثة ، التي ارتبطت بموجة التعصب الديني من قبل مسيحيي أوروبا ضد العالم الإسلامي . وكان ذلك رد فعل للموجود الإسلامي في الاندلس الذي استمر قائماً لمدة ثمانية قرون سابقة من ناحية الغرب ، وللخروب الصليبية التي شهدتها عالم البحر المتوسط وامتدت بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر الميلاديين ، ولدور العثمانيين في السيطرة على القسطنطينية عام ١٤٥٣ من ناحية الشرق . وقد أدى اندفاع القوات العثمانية إلى شرق ووسط أوروبا من جهة ، وأنهى سواحل البحر الأسود وببلاد فارس من جهة أخرى ، إلى سد الطرق التجارية الموصلة بين آسيا وأوروبا عبر هذه المناطق ، وأثر بالتالي في التجارة العالمية وطرقها ومراكزها ، مما حولها تماماً إلى موانئ مصر والشام المطلة على البحر المتوسط والقى كانت تسيطر عليها دولة المماليك آنذاك . وكانت الدولة المملوكية تستقبل التجارة العالمية عبر الذراعين البحريين المتدينين إلى أوروبا وهما الخليج العربي من جهة ، والبحر الأحمر من جهة أخرى . وكان لنهرى دجلة والفرات من الجهة الأولى ولنهر النيل من الجهة الثانية أثراً هم البالغ في تسهيل حركة التجارة بحرياً ، إلى جانب طرق القوافل التي تربطهم برياً بموانئ البحر المتوسط في جانبيه الشرقي والجنوبي .

غير أن الغرب الأوروبي في نهاية العصور الوسطى وخاصة في القرن الخامس عشر الميلادي كان قد مل التعامل مع المماليك بسبب كثرة الضرائب وارتفاع رسوم الجمارك وقوة الاحتكارات ، مما دفع الأوروبيين إلى

البحث عن طريق آخر أكثر أمنا وأقل تكلفة وحققت هذا الهدف البرتغال التي اتجهت في كشوفها للوصول إلى الهند ناحية الشرق ، بعكس الإسبان الذين اتجهوا في كشوفهم الجغرافية ناحية الغرب ، فعبروا المحيط الأطلسي ووصلوا إلى العالم الجديد . بينما اندفع بحارة البرتغال يحدوهم التحمس الديني فداروا حول إفريقيا ووصلوا إلى رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٧ ، ثم تمكنوا من الوصول إلى الهند في سنة ١٤٩٨ . ومن خلال عدة معارك حربية تمكنوا من القضاء على نفوذ المماليك في البحر الشرقي ، وسيطروا على تجارة الشرق ، مما كان له أثُرٌ الأثُر على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، في المجالات الاقتصادية ، والسياسية ، والاستراتيجية . وسوف يضعف هذا الأثر تدريجياً منذ نهاية القرن السادس عشر وخاصة بعد انضمام البرتغال إلى إسبانيا عام ١٥٨٠ ، وهزيمة الأسطول الإسباني الارمادا أمام أساطيل إنجلترا عام ١٥٨٨ . إذ سيتحول مركز الثقل البحري والتجاري إلى فوق أوروبية أخرى تمثلت في هولندا وفرنسا . وسوف تتعاظم قوة إنجلترا بوجه خاص في هذا المجال لتصبح في مقدمة القوى الأوروبية التي ستنجح في احياء الطريق التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط في نهاية القرن الثامن عشر .

والحقيقة أن أي مشتغل بالبحوث التاريخية لا يغيب عنه معرفة جوانب كثيرة من هذا الموضوع ، غير أننى أردت ببحثى هذا أن أضع هذه الجوانب مجتمعة تحت غلاف واحد ، وأن أقيم حجمه الحقيقي في احداث تغير في الواقع الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي الذى عاشته مصر وعالم البحر المتوسط ، منذ وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ وحتى نهاية القرن السادس عشر ، أو

بالآخرى نهاية الفترة التى ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخى الهام ، وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التى ترتبت عليه .

ولهذا قاتنى سأعالج هذا الموضوع من الناحية المنهجية بتقسيمه إلى ثلاثة فصول ، أولها أتبع فيه التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبل تحولها إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ، وثانيها أتبع فيه دور البرتغاليين في احداث هذا التحول في نهاية القرن المذكور ، وثالثها أتبع فيه الآثار التي أحدثها هذا التحول في مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر من النواحي الاقتصادية ، والسياسية والدبلوماسية ، والاستراتيجية ، والتي انعكست على جوانب الحياة في هذه المنطقة انحبسها من العالم لدى بعيد في تاريخها الحديث .

وقد استندت في هذه الدراسة إلى عدد من المصادر الوثائقية والمخطوطة المعاصرة ، وإلى عدد آخر من البحوث والماجيم المنشورة المؤثقة . وكانت الوثائق المحفوظة بأرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية ، والتي تخص محكمة الاسكندرية الشرعية ، والتي ارفقت بالبحث عشرين وثيقة مختارة منها لم يسبق نشرها ، من أهم المصادر الوثائقية لهذه الدراسة ، فهي تعد مصدراً حصرياً وثرياً للماده العلمية ، كما تعتبر من أصدق وثائق تاريخ مصر في العصر العثماني . وقد قسمتها إلى مجموعتين أولهما تتعلق بالنشاط التجارى للتجار المغاربة في الاسكندرية وعددتها ثلاث عشرة وثيقة ، وثانيها تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط القيمين بالاسكندرية وعددها سبع وثائق . وتعود جميعها إلى منتصف القرن العاشر الهجرى والسادس عشر الميلادى . وقد شرفت بتقديم هذا البحث في ندوة « مصر وعالم البحر »

المتوسط عبر العصور » التي نظمها سمنار الدراسات العليا للتاريخ بكلية الآداب بجامعة القاهرة في الفترة من ١٣ - ١٥ أبريل ١٩٨٥ . و كنت بحق من أكثر المستفيدن من الحوار العلمي الذي دار حول الابحاث التي قدمت في هذه الندوة ، خاصة و انى اقوم بتدريس مقرر « علاقات مصر الدولية بشعوب البحر المتوسط في العصور الحديثة » لطلاب الدراسات العليا بمعهد دراسات البحر المتوسط بكلية الآداب بجامعة الاسكندرية كما اشرف على بحوثهم . وأرجو أن أكون بهذا البحث قد قدمت قراءة جديدة لموضوع تاريخي هام ، يجمع بين ثناياه أبعادا اقتصادية وسياسية واستراتيجية في آن واحد ، فضلا عن كونه محور تحول وانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة .

والله ولی التوفيق —

د. فاروق عثمان اباذه

الفصل الأول

التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبيل تحولها إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

كانت التجارة العالمية الاتية من بلاد الشرق إلى أسواق أوروبا طوال العصور القديمة والوسطى تظفر برواج واسع وتحقق أرباحاً خيالية للمشتغلين بها منذ شحنها في موانئ التصدير الآسيوية والأفريقية المطلة على المحيط الهندي حتى يتم توزيعها في أسواق أوروبا . وكانت هذه التجارة تعبر مصر والشام لتصل إلى عالم البحر المتوسط حيث تستقبلها الموانئ الأوروبية التي تقوم بتوزيعها في أسواق أوروبا . وكانت هذه السلع متعددة ومتعددة ويتشكل قوامها من البخور ، والعطور ، والتوابل (١) ، التي عرفت تجارتها باسم تجارة الكارم (٢) ، والعقاقير ، والبن ، والآقمشة الحريرية ، والسجاجيد ، والماعج والاحجار الكريمة والاختساب النادر التي يصنع منها أرقى أنواع الأثاث الفاخر والتحف التمينة . فالتوابل كان في مقدمتها القرفة والجنزبيل والفلفل وجوز الطيب ، واستخدمت في إعداد الوان الطعام ، وأصبح عليه القوم من الأوروبيين لا يقبلون على طعام لم يمزج بالتوابل الشرقية (٣) . كما اقبلت النساء الأوروبيات على المسك والعنبر

(١) نعيم زكي نهوى (دكتور) : طرق التجارة العالمية ومحطاتها بين الشرق والغرب (أواخر العصور الوسطى) ، ص ١٩٢ .

(٢) توفيق اسكندر (دكتور) : بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ١٩٦١ ، ص ١٤٠ .

Howe, Sonia : In Quest of Spices, pp. 13,14

(٣)

وماء الورد وأطيب أنواع العطور والبخور وأمة سوجات الحريرية الراقصية ، وكانت تشاركتهن في ذلك أيضا المكنائس في أوربا . أما العقاقير المتعددة الأنواع مثل الأفيون والسكافور والصـــخ وغيرها ، فـــكان الأوربيون يستخدمونها في اعداد الدواء ويكثرون عليها ما يدل على استيرادها من بلاد الهند أو بلاد العرب تأكيدا لجودتها ^(٤) .

وكان اليمن من أهم المطبع الشرقيات التي انفردت بلاد اليمن في العصور الوسطى بانتاجه ، واقبل عليه الأوربيون اقبالا متزايدا ، حتى كان هذا الحصول في القرون التالية موضع تنافس حاد بين شركة الهند الشرقية الانجليزية (١٦٠٠ - ١٨٥٨) وبين طلائع التجار الامريكيين الذين حاولوا احتكاره في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مما جعل بريطانيا تعم على كسر احتكار الامريكيين لهذه التجارة وتحويلها من ميناء مخا اليمني إلى ميناء عدن الذي قام باحتلاله في ١٩ يناير ١٨٣٩ . ^(٥)

أما بالنسبة لتجارة الأقمشة الحريرية فقد عرفت في ديار الشام ومصر منذ القرن الأول قبل الميلاد حيث كان الرومان يحتلون تلك البلاد . وكان الحرير هو المادة الرئيسية في الاتجار بين العالم الروماني والصين ، إذ كان الحرير يشكل تسعة أعشار ما يستورده الرومان منها ، وكان يصل إلى موانئ صور وصیدا وانطاكية والاسكندرية . وفي الموانئ الفينيقية كان يعالج بالأصباغ المختلفة ، وأشهرها الارجوان ، وعندما يصبح لباس

(٤) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوربا في مطلع العصور بجامعة عين شمس ١٥-١٠ مارس ١٩٧٩ ، ص ٣٧٧ .

(٥) ماروق عثمان أباظة (دكتور) : التنافس الدولى في جنوب البحر الاحمر في النصف الاول من القرن التاسع عشر ، ندوة « البحر الاحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة » التى أقامها سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديثة ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

الإباطرة ، وفيما بعد أصبح لباس كبار رجال الكنيسة . وظل إنتاج الحرير حكراً على الصين ، والاتجاه به خاصاً لمن يتولى شؤون إيران إلى أواسط القرن السادس للميلاد عندما حمل راهبان بعض بذور القرن في جوف عصيهما خفية إلى الجانب الشرقي من حوض البحر المتوسط ، وعندما باشرت تلك المنطقة بإنتاج الحرير . وانتشرت صناعة الحرير في لبنان بسبب جودة المناخ لزراعة التوت وحفظ الشرائق صيفاً ومهارة الصناع في خدمة الحرير نسجاً وصياغة . وكان الحاجات البناية والجنويون وغيرهم يعودون من الأراضي المقدسة حاملين معهم النسائج الحريرية التي كان الطلب يتكاثر عليها فتضطر مراكب البندقية إلى المكوث طويلاً في مرفأ صور في انتظار الفراغ من تجهيزها . وبعدما كانت الأقمشة الحريرية محصورة الاستعمال في تزيين المذابح وجدران الكنائس ، فقد انتشر استخدامها في قصور الامراء الذين تسربوا هم ونساؤهم باللبسة الحريرية ، كما صنعت من الحرير الأعلام وأغشية الأسرة ، وازدادت بها الخيام وأماكن الاستقبال فنشط طلبها من الشرق نشاطاً كبيراً ^(٦) .

وكانت التجارة العالمية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى تسلك عدة طرق برية وبحرية من مصادرها الأصلية في بلاد الشرق والتي يطل معظمها على المحيط الهندي حتى تصل إلى الأسواق الأوروبيّة . وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يسير في طريقين أولهما : طريق البحر الأحمر إلى السويس ثم إلى القاهرة بالقوافل ، ومنها على ظهر السفن في فرع رشيد إلى قرب مدينة الرحمانية ، ومن هناك إلى الإسكندرية ،

(٦) نقولا زياده (دكتور) : الطرق التجارية في العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم التي تصدر في بيروت السنة السادسة العددان ٧٢-٧١ ، سبتمبر - أكتوبر ١٩٨٤ ، ص ٣٨-٤٠ .

اما بالملاحة في ترعة كانت تصل ما بين النيل والاسكندرية او على ظهر الدوابب ^(٧) . وثانيهما : طريق الخليج العربي ونهر الفرات ، ثم الى حلب ومنها الى الموانى الواقعة شرقى البحر المتوسط ^(٨) . والى موانى مصر والشام وكانت تأتى سفن البناقة والجنوبيين وغيرهم ، فتتقل سلع التجارة الى اوربا . ولما كان سلاطين المماليك يحكمون مصر والشام في نهاية العصور الوسطى وحتى مطلع القرن السادس عشر ، فقد كان الطريقان في قبضتهم . وبذلك جنوا فوائد مادية عظيمة ، من الضرائب الكثيرة التي كانوا يفرضونها على هذه التجارة عند مرورها بالاراضى المصرية والشامية ، خصاً عن احتكارهم لكتير من سلعها المختلفة ^(٩) .

ومنذ اواخر القرن الثالث عشر الميلادى بدا ملوك « أرغونة Aragon » كذلك يحرصون على اقامة علاقات قوية مع سلاطين المماليك في مصر والشام من أجل رعاية شئون كاثوليكى الشرق وفتح أسواق جديدة لارغونة في مصر . وقد أثبتت المصالح التجارية والاقتصادية تفوقها على المصالح الدينية في علاقات الاوروبيين بالمماليك ابتداء من القرن الرابع عشر الميلادى بحيث كان لكل من البندقية وجنوة وأرغونة تجارة نامية مع مصر ، وساعدتهم علاقاتهم التجارية الطيبة بالمماليك على التدخل لصالح المسيحيين الكاثوليك المقيمين في اراضي الدولة المملوكية آنذاك ^(١٠) .

(٧) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المراجع السابق ، ص ١٢٤ .

(٨) Wilson, A. T. The Persian Gulf, pp. 10, 13.

(٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، ص ٢٠٨ .

(١٠) قاسم عبده قاسم (دكتور) : اهل الذمة في مصر العصور الوسطى ، ص ٩٨-٩٧ .

وكانت مدينة القاهرة عاصمة العالم التجاريه في عصر سلاطين المماليك خاصه بعد أن انسدت طرق التجارة العالمية الكبرى بين الشرق والغرب في ذلك العصر نتيجة لوقوع معظمها تحت سيطرة التتار ، وبقى طريقى مصر والبحر الاحمر وحده بعيداً عن تهديدهم ، الامر الذى مكن سلاطين المماليك من احتكار التجارة الشرقيه وخاصة تجارة التوابل . وقد عاد ذلك على المماليك وعلى عاصمتهم القاهرة بشروء فائقة ، (١١) بحيث اكتنطت بالقصور والمنشآت الدينية كالجوامع والزوايا والمدارس ، والمنشآت الاجتماعيه كالسبيل والبيمارستانات والحمامات ، والمؤسسات التجاريه كالأسواق والفنادق والوكالات . وقد اكتنطت القاهرة بـالمماليك وهم الطبقة الحاكمة والسايده في البلاد ومعظمهم من الترك والجراسنه ، ومن المواطنين المصريين ومنهم العلماء والتجار وأصحاب الحرف والعمالة من المسلمين وأهل الذمه ، فضلاً عن الأجانب من التجار والسفراء والرجاله وغيرهم ، الذين وفدو على مصر من مشارق الارض ومنغاربها ومن البلاد الاسلامية وال المسيحية سواء . وكثرت في القاهرة في العصر المملوكي الاحتفالات والمواكب ، واتصنفت الحياة اليومية في شوارع القاهرة بكثرة الباعثة الجائعين ، هذا عدا الملايين من النساء اللائي تعمتن بحرية واسعة في الخروج من بيوتهم ، فكن يترددن على الأسواق لشراء ما يلزمهن أو يترددن على الحمامات العامة لاستكمال زينتهن ، وهناك يائسن ببعضهن ويقضين الساعات يتناقلن أخبار البيوت وأسرار العائلات (١٢) . واذا كان أهل

(١١) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المملوكي في مصر والشام ، ص ٢٨٤ .
العصور الوسطى ، محاضرة القيد بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية —
المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ ، ص ١٧٣ .

القاهرة قد تعرضوا أحياناً لمعرض الضيق والشدائد نتيجة لسلط طائفة الماليك على عامة الأهالى من المصريين ، أو نتيجة لضيق اقتصادى بسبب انخفاض النيل وما ينجم عنه من ارتفاع الأسعار وانتشار الوباء ، أو نتيجة لفترة بين طوائف الماليك وعصبياتهم ، فان ذلك كلّه لم يفقد أهل القاهرة روح المرح وتعدد وسائل التسلية والترويح عن النفس ، كالخروج إلى الحدائق والى شاطئ النيل ومشاهدة خيال الظل والعاب الحسوة والقردة وغيرها ^(١٢) . وقد قيل عن مجتمع القاهرة في عصر سلاطين الماليك أنه كان ذا واجهتين ، أو بعبارة أخرى كان مزدوج الشخصية ، ظاهره التقوى والتدبر ، وباطنه الانم والفساد . فرغم أن القاهرة صارت مقر الخلافة العباسية بعد أن سقطت في بغداد على أيدي التتار ، الامر الذي جعلها محوراً لنشاط ديني فذ ، تشهد عليه كثرة المنشآت الدينية الضخمة مثل الجامع والربط والزوايا والمدارس وغيرها ، فقد انتشرت فيها من ناحية أخرى الامراض الخلقية المختلفة ^(١٣) ، وكان ذلك ناتجاً عن اكتظاظ المدينة بالسكان ، ووفود نسبة كبيرة من الأغرايب إليها ، وقيام طبقة حاكمة حديثة عهد بالاسلام بالاشراف عليها فضلاً عن الثورة الكبيرة التي هبطت على ذلك المجتمع من عوائد التجارة وجعلت القاهرة عاصمة العالم التجارية ، وقد اعتبر ابن خلدون أن هذه الثروة الكبيرة كانت السبب وراء تلك الانحرافات ^(١٤) . وكان تحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس عشر من

(١٢) ابن ايس : محمد بن احمد : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : المجتمع المصري في مصر السلاطين الماليك ، ص ١٥٣ .

(١٥) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٨ .

أبرز العوامل التي أثرت على مدينة القاهرة وعلى النشاط الاقتصادي والاجتماعي لسكانها .

وقد ظهر تنافس شديد بين القاهرة والاسكندرية حتى نهاية العصور الوسطى في بيع وتوزيع سلع الشرق وسلح الغرب من التجارة العالمية ، ولكن ظلت القاهرة نقطه تجميع السلع ، ومركز توزيعها شرقاً للسلع الغربية وغرباً للسلع الشرقية والمحليه ، نظراً لتوسيط مراكزها ، كما كانت أقصى ما يصل اليه التجار الآجانب الوافدين لمصر ، حتى أنه قد نص على ذلك في المعاهدات التجارية بين مصر والدول الأوروبيه (١٦) . وقد خصصت بالقاهرة أحياً معينة لتجارة التوابل والعطور والسلع الشرقية والغربية ، وللتجار فيها مخازن وقياسات ووكالات وفنادق وأماكن خاصة لدوابهم ، لاسيما الوافدين من الشام أو بلاد العرب أو السودان وأحياناً من فارس . وقد زار القاهرة في أو اخر القرن الخامس عشر بعض الرحالة الآجانب ووصفوا مدى الازدهار التجارى الذي عاشته المدينة في العصر المملوكي حتى بداية القرن السادس عشر (١٧) .

ويقترن بذكر القاهرة ميناؤها الهام على النيل عند بولاق والذي ظل الميناء الرئيسي للقاهرة على النيل حتى أواخر العصور الوسطى . وتدخل الميناء آلاف السفن المحملة بالسلع والمتاجر من الشرق والغرب ، فتصله من الاسكندرية عن طريق فرع رشيد ، ومن موانى الشام عن طريق فرع دمياط ، ومن الجنوب سلع الحبسة والتوبه ، وموانى البحر الاحمر . ووجد

Heyd, W. : Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, (١٦)
T. II., pp. 434, 435.

Howe, Sonia : Op. Cit., p. 99. (١٧)

بميناء القاهرة مخازن ومتاجر ووكالات واسعة ، كما وجد بها رجال الحكومة وعمال الجمرك بصفة دائمة لتحصيل الرسوم المستحقة على التجارة . ولجماركها باب خاص بالمسافرين تتحقق فيه حقائبهم ويدفعون ١٠٪ عما فيها ، «ودوكيين» للمسافر العادى ، وخمسة للحاج ، مع دقة مراثبتهم ، مما كان يشكل حصيلة كبيرة للفزانة المملوكية ^(١٨) .

أما بالنسبة لميناء الاسكندرية وأهميتها على طريق التجارة الدولية عبر مصر وعالم البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر ، فقد كانت بحكم موقعها على هذا البحر تفوق القاهرة في اتصالها بأوروبا مباشرة . وكانت المدينة تردد حم طوال العام بالايجانب الوافدين إليها للتجارة أو للعبور للحج للاماكن المقدسة في سيناء وفلسطين . وكان لدول أوروبا وعالم البحر المتوسط بصفة خاصة قنابل وسفراء ووكالات وأحياء كاملة وفنادق بالاسكندرية يمارسون فيها حياتهم الخاصة في حرية ، وكان السلاطين الماليك قد سمحوا للحجاج العابرين بدخول الفنادق منذ أواخر القرن الرابع عشر الميلادى بعد دفع رسم سنوى للسلطان . ومن أشهر الفنادق التي كانت تقوم بهذا النوع من الخدمات فندق اهالى مدينة ناريون ، وفندق البنادقة ، وفندق القطاليونيين . وكانت الاسكندرية قد خلفت مدينة دمياط كميناء مصر الاول على البحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن الثالث عشر بعد أن هدم الماليك جزءاً من الميناء وردموا فم بحر دمياط حتى يأمنوا أى غزو أوربى منه ، لذا لم يعد في استطاعة السفن الاوربية الكبيرة الوصول إليها ، وأصبحت ترسو بالبحر قريباً من مصب فرع دمياط و تستخدم القوارب النيلية بينها وبين الميناء .

(١٨) نعيم زكي شهوى (دكتور) : المراجع السابق ، ص ١٢٩ .

ولهذا شهدت مدينة الاسكندرية أروع أيامها في النصف الثاني من القرن الخامس عشر وخاصة بعد عام ١٤٥٣ حتى أن ايرادات الحكومة كان معظمها من جمرك الاسكندرية التي كانت تتراوح يومياً في فترات «ما بين» ألف وalfi دينار عدا رسوم السفن والسياح والحجاج^(١٩) والمدينة لاتقل اتساعاً وأهمية عن اكبر مدن البحر المتوسط التجارية مثل البندقية وجنتو ومرسيليا ، ولها عدة أبواب يفتح أحدها الى الميناء حيث يوجد به مرسى البرج للسفن الوافدة من أوروبا ، ومرسى السلسلة للسفن الوافدة من شمال افريقيا ، وتقل فيه رسوم الجمارك عن المرسى الاول . والى الشرق من ميناء الاسكندرية يقع ميناء (أبو قير) عند بحيرة تعرف باسم (رأس المعدية) ويحصل الميناء بقناة تصل للبحيرة . ويبعد الميناء حوالي ثمانية أميال شرقى الاسكندرية . وميناء أبو قير يعد مرفاً للسفن السورية القادمة للاسكندرية وتتدخله السفن الصغيرة ، أما السفن الكبيرة . فتقتصر به من البحر بواسطة القوارب^(٢٠) .

وكانت لمدينة رشيد أهمية خاصة عند سلاطين المماليك ، حيث كانت الميناء الكبيرة للبحرية المملوكية مما جعل السلطان قونصوه الغوري (٩٠٧ - ٩٢٢ / ١٥١٦ - ١٥٠١) يشيد بها سورا وأبراجا لحفظها . وكان محظوراً دخول الاجانب الى رشيد نظراً لصفتها الحربية^(٢١) ، وإن كان السلطان الغوري قد سمح للتجار العنادقة بالدخول اليها والاستقرار فيها ، فضلاً عن إقامة فندق لهم هناك ، نظراً لتفوق تجارتهم مع السلطنة

(١٩) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٠ .

(٢٠) نعيم زكي فهمي (دكتور) : نفس المرجع ، ص ١٢١ .

(٢١) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٩٥ .

على مائير الدول الأخرى (٢٢) . وقد نقل النشاط التجارى منا إلى ميناء بلدة فوة التي تتصل بالاسكندرية بقناة ملاحية ظلت تستخدم حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادى . كما كانت تخرج من جنوبى رشيد قناة تصل إلى ميناء البرلس بين رشيد ودمياط ، وهو مفتوح للملاحة طوال العام ، وله مدخلان الشمالى للسفن المسيحية والغربي للسفن الإسلامية وكانت الموانى تتبع نائب الاسكندرية الذى يحصل مندوبوه رسوم الدخول وشحن وتغليف السلع . وقد اعتنى العثمانيون عقب فتحهم لمصر في سنة ١٥١٧ بمدينة رشيد وقام بزيارتها السلطان سليم الأول (١٥١٢ - ١٥٢٠) وأنشأ بها الوالى العثمانى سليمان باشا الخادم (٩٣٦ - ١٥٢٤ / ٥٩٣٤ - ١٥٢٧) قيسارية وفندقا ، كما أنشأ داود باشا (٩٤٥ - ١٥٣٨ / ٥٩٥٥ - ١٥٤٨) فندقا آخر سمي خان داود باشا ، كما أنشأ على باشا فندقا عام (٩٥٦ / ١٥٤٩) بالإضافة إلى خانات أخرى بفوهة ، كما عمر وكالة كبيرة في رشيد (٢٣) .

ومن أشهر موانى مصر كذلك ميناء دمياط النهرى البحري ، وهو مخرج تجارة مصر لدن وموانى الساحل الشرقي للبحر المتوسط والأناضول وكريت وقبرص ، كما يتصل بالقوافل البرية إلى موانى البحر الأحمر . ولا تدخل السفن ميناء دمياط مباشرة بسبب شدة التيار من النيل ، وكذلك لردم جزء من فم البحر عندها . إنما يخرج من دمياط قناة إلى بحيرة المنزلة حتى تدخل إليها السفن الكبيرة من البحر المتوسط حتى تتنفس على

(٢٢) جيرار ، ب.س : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، وصنف مصر ، ترجمة زهير الشايب ، القاهرة ١٩٧٨ ، المجلد الرابع ، من ٢١٠.

(٢٣) صلاح احمد هريدى على (دكتور) : الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة رشيد في العصر العثمانى ، دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٤ - ١٩٨٣ ، من ٣٢٨ - ٣٢٩ .

بعد سبعين ميلاً من البحر المتوسط ومثلها من قناة دمياط ، وهي في الواقع مركز تبادل السلع الواردة إلى دمياط والصادرة منها . واشتهرت دمياط بضواحيها بخصوبة التربة ووفرة انتاج قصب السكر وصناعة السكر بصفة خاصة . وقد أرسل فرسان الاسبتارية في رودس قنصلاً لهم في دمياط ليرعى الشئون التجارية ، كما وجد بدمياط عدد كبير من الاجانب اليونانيين والبنادقة والجنوبيين والفلورنسين . وظلت قنصلية رودس قائمة حتى الفتح العثماني لمصر عام ١٥١٧^(٢٤) . وعلى مقربة من دمياط يوجد ميناء البرلس الذي اشتهر بصيد البورى وتصديره مملحاً إلى رودس بصفة خاصة . وفي عامي ١٥٠٧ و ١٥٠٨ م دعا السلطان قونصوه الغوري التجار الفلورنسين لزيارة دمياط والاسكندرية والبرلس . وفي بداية القرن السادس عشر كان للبنادقية قنصل في البرلس لرعاية النشاط التجارى للبنادقة هناك^(٢٥) .

هذه هي أبرز مواقي مصر المطلة على البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر الميلاديين ، بالإضافة إلى القاهرة عاصمة السلطنة المملوكية التي كانت مركزاً للتجارة العالمية آنذاك .

اما بالنسبة لموانئ مصر المطلة على البحر الاحمر فقد كان في مقدمتها ميناء السويس ، الذي كانت تصل إليه السفن التجارية الصغيرة من ميناء جدة وعدن محملة بالتوابل والعطور والعقاقير والاحجار الكريمة والعنبر والمسك ، ثم تحمل على ظهور الجمال عبر الصحراء إلى القاهرة ، ثم بالنيل إلى الاسكندرية . على ان هذا الميناء التجارى لم يلبث ان تحول وأصبح

(٢٤) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٩٢ .

Hoyd, W. : Op. Cit., pp. 228, 229.

(٢٥)

ميناء مصر الحربي على البحر الاحمر وبنيت به ترسانات السفن الحربية والتجارية القاصدة الى المياه الشرقية ، ومنه تحركت سفن الاسطول المملوكي لحاربة البرتغاليين في المحيط الهندي في مطلع القرن السادس عشر ، وكذلك سفن الاسطول العثماني خلال القرن المذكور ^(٢٦) . وعندما صارت السويس هرفاً مصر الحربي على البحر الاحمر فقد استقر رأى السلطات المملوكية على أن يحل ميناء الطور محلها في التجارة فضلاً عن ميناء القصیر الذي يربطه طريق القوافل الى قنا على نهر النيل ومنها الى القاهرة . وقد اتبع في ميناء الطور نفس النظام الذي كان لميناء السويس فسفن الهند لا تصله ائماً تفرغ حمولتها في عدن وفيما بعد في جدة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ثم تنقل السلع الى الطور بالقوارب ومنها بالقوافل الى القاهرة . وكانت سفن التجارة الهندية تصل الى جدة مرتين في العام ، وفي كل مرة ينشط العمل في ميناء الطور ^(٢٧) . وفضلاً عن أهمية الميناء التجارية فهو المحطة الرئيسية للحجاج المسيحيين الوافدين لمصر من دير سانت كاثرين بسيناء ، وللحجاج المسلمين المتوجهين الى مكة والمدينة المنورة . وكان الحجاج المسيحيون يهتمون خاصة بمواعيد وصول سفن التجارء الى الطور ، نظراً لأنّ البدقة كانت تضع توقيتاً لسفناً التجاربة بالاسكندرية يتفق مع حساب فرق الوقت والتوزيع من الطور للقاهرة ثم للاسكندرية ، وحتى يستطيع الحجاج المسيحيون القاصدون أوربا اللحاق بقوافل التجارة الى القاهرة والرحيل الى أوربا على سفن البدقة التي تنتظر المتاجر في الاسكندرية ^(٢٨) .

Hammer, J. : Histoire de L' Empire Ottomane,, Tome 5, pp. 301, 302. (٢٦)

Heyd, W. : Op. Cit., pp. 440, 442. (٢٧)

(٢٨) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٣٤

وتجدر الاشارة كذلك الى التجارة التي كانت ترد الى مصر والشام من الجزيرة العربية والتي كانت تختلف عن طبيعة منتجات وادي النيل . فالجزيرة العربية كانت تحتاج الى المنتجات الزراعية بوادي النيل، الخصيب كالحبوب بانواعها ، بينما كانت الجزيرة العربية تصادر الى مصر والشام البن الذي تجود زراعته في بلاد اليمن . وبالاضافة الى ذلك كانت هناك في الجزيرة العربية حركة تجارية كبيرة للسلع الهندية كالتوابل واعشاب التي تصلح كعقاقير فضلا عن نوعيات الاقمشة التي كان يحضرها التجار الاسيويون من بلادهم ^(٢٩) . الى مكة والمدينة المنورة وخاصة في موسم الحج . وكان ميناء القصير وميناء السويس يستقبلان كثيرا من تلك السلع الاسيوية الواردة الى الجزيرة العربية ، كما كانت تصدران الى الجزيرة القمح والدقيق والفول والعدس والسكر والزيوت ، وكان عرب الجهات القريبة عرب الطور ، وعرب الحويطات يتزدرون على السويس للبيع والشراء ، فيبيعون لاهلها سلع الباادية من سمن ونحوه ، ويشترون سلع المدينة من ثياب وغيرها . وكانوا يكترون بها في موسم الحج خاصة لبيع بضائعهم للحجاج ثم يعودون الى اقاليمهم . وقد غالب على سكان السويس عنصر التجار ووكالاتهم ، فكان يقيم بها وكلاء عن تجار القاهرة والاسكندرية ووكلاء عن تجار الهند واليمن والحضار والسودان ^(٣٠) .

وتجدر بالذكر ان طريق الحج كان سببا في احياء مواني السويس والقصير والطور وعدم هجرهم حتى بعد تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر وخلال القرن السادس

(٢٩) نعيم زكي نهبي (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٢٥ - ١٣٦ .

(٣٠) ليلى عبد اللطيف احمد (دكتورة) : دراسات في تاريخ ومؤرخى مصر

والشام ابان العصر العثماني ، ص ١١٢ .

عشر الميلاديين (٢١) . اذ ظلت السويس معبراً لتجارة مصر مع بلاد اليمن والجaz والقى تجمعت فيها سلم كثيرة شرقية أحضرها معظم الحجاج من سائر انحاء آسيا وافريقيا (٢٢) . فكانت كل هذه المتاجر تمر بالسويس ومنها على ظهور الدواب الى القاهرة ، وكانت تصل الى السويس مجموعات عديدة من السفن على مدار العام . وكانت السويس مقراً لجملك هام يقيم فيه المقومون الموثقون الذين يقدرون اثمان البضائع ، فيؤخذ على المائة عشرة . ومن البضائع التي كانت تردد الى ميناء السويس الحرير الهندي ، والقطن الهندي ، والقطن السواكنى ، والفلفل ، والحبان ، والبن ، والزنجبيل ، والقرفة ، وجور الطيب ، وجوز النارجيل ، والتيلة الهندية ، والعقارب ، والقلويات المستعملة في الصابون والفحيم السيال ، والسمن الشيجى ، والكافور ، واللائق ، والطيوور والقرود ، والظباء ، والغنم البرية .

ولما كانت رياح الجنوب تسود عادة البحر الاحمر منذ بداية ديسمبر وحتى منتصف فبراير ، فان موسم ارسال السفن الشراعية يتم تجاه الشمال من جدة وينبع الى السويس . وفي بقية العام تهب الرياح من المنطقة الشمالية ، وعندئذ يمكن ارسال السفن تجاه الجنوب من السويس الى الجزيرة العربية . وعندما تكون الرياح مواتية تصل السفينة من جدة الى السويس في خمسة عشر او ستة عشر يوماً ، في حين ان المدة التي تستغرقها الرحلة العادمة تبلغ عشرين او اثنين وعشرين يوماً ، وتكون خمسة وعشرين

Crouchley, M. E.: The Economic Development of Modern Egypt, P. 34. (٢١)

Shaw, S. J.: The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, P. 138. (٢٢)

او ستة وعشرين يوماً بالنسبة للسفن القادمة من ينبع ^(٣٣) .
و بالنسبة لعملية نقل البضائع الواردة من السويس الى القاهرة ،
فقد كانت تحترم نقلها اربعه قبائل نسلك كل منها طريقة مختلطة هي قبائل
طرابين ، والحوبيطات ، وعرب الطور ، والعابدي . ويقدم هؤلاء العرب
الجمال بحماليها ، وعدداً مناسباً من قائدى الجمال الذين يخضعون لاوامر
شيخ العرب . ويحمل الجمل الواحد من السويس الى القاهرة من خمسة
إلى ستة قناطرير من البن ، وكانت في السويس ثمانى عشرة وكالة مخصصة
لسكنى التجار الأجانب ولهم يستخدمونها كمخازن . وكانت شوارع يندر
السويس نظيفه وبمبانها منتظمه وبها ثلاثة ميادين ، وقد أثر النشاط التجاري
على المدينة فبدت أفضل من غيرها من المدن المصرية في القرن الخامس
عشر .

وتتجدر الاشارة الى أن السويس كانت في نهاية القرن الخامس عشر
مقر لجمرك هام عرف باسم « جمرك عشر أصناف بهار وتوابعها » ، وكان
هذا الجمرك يثير الخزانة المملوكية الى جانب جمرك الاسكندرية وجمرك
رشيه وجمرك دمياط وجمرك البرلس ، وكان الاخير يختص بالمقابر الواردة
من الدلتا ومن الصعيد .

كذلك كانت تصل الى مصر عن طريق الصعيد القوافل التجارية الآتية
من داخل افريقيا مثل قافلتي دارفور وسنار ^(٣٤) ، وكانت تسهمان في
تجارة الرقيق والماج والصمغ ، والتمر هندي ، وجلود الكركدن . وتصل

(٣٣) ليل عبد اللطيف احمد (دكتور) : دراسات في تاريخ ومؤرخى مصر
والشام ابان العصر العثماني ، ص ١٢١ .

(٣٤) صلاح هريدى على (دكتور) : دور الصعيد في مصر العثمانية ١٦٢٢ - ١٦١٣هـ / ١٧٩٨ - ١٥١٧هـ ، ص ٢٧٨ .

هذه القوافل الى أسوان التي كانت ميناء عاما على النيل عبر العصور — ثم تصل الى أسيوط حيث كانت تفرض عليها ضرائب تقدر على الواقع والجمال وما تحمله من سلع . ثم تنقل البضائع بعد ذلك في قوارب عبر النيل الى القاهرة . وكانت تباع في أسيوط معظم الجمال التي تصاحب القوافل ويحتفظ بما يقرب من خمس عدده، ليستخدمة التجار في رحلة العودة الى دارفور وسنار ، وكانت تتم الرحلات مرات عديدة في كل عام . وكان التجار الافارقة يحملون معهم من القاهرة في رحلة العودة الى بلادهم السلع المختلفة من الاقمشة ولوازم الخيول ، والبن ، والسكر والأسلحة والمعادن والرجاج الملون ، وكان بعض هذه السلع يصل الى مصر من أوروبا عن طريق البنادقة (٣٥) .

وكانت تربط السلطنة المموكية بمنون افريقيا علاقات تجارية مع بلاد التكرور أو مالي ، وسلطنة برنو أو تانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنجاي . ومن أشهر تجارة الماليك مع دول افريقيا الصناعات المصرية على وجه الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجواهر ، أو ما كان يطلق عليه الترميك أو التكفيت ، وهي صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها في صناعة الاواني النحاسية ، كالاباريق والمباخرو الثريات والطاسات والمسارج . وكذلك صناعة السرج التي كانت لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التي بلغت عالية الرفى ، وصناعة الرجاج ، وان كان أتى بها على الأطلاق صناعة الاقمشة التي كانت تصنع في مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز . وتجدر الاشارة كذلك الى طرق القوافل التي كانت تربط بين بلدان

المغرب العربي المطلة على الجانب الغربي من البحر المتوسط ومصر ، وهي تلك الطرق التي تسلكها قافلة الحج والتى تمر بالقليلين المغرب الساحلية المختلفة (٣٦) . وقد كانت هذه القافلة في نفس الوقت هي قافلة تجارية نظرا لأن الحجاج المغاربة كانوا يحملون معهم السلع المغربية لبيعها في المدن والقرى المصرية التي يمرون بها أثناء رحلتهم ، وكذلك يفعلون في المدن الشامية في شرقى البحر المتوسط ، وفي موانى ومدن الحجاز . وفي طريق عودتهم من رحلة الحج كان التجار المغاربة يحملون معهم السلع المشرقية المختلفة من حجازية وھنديه وشامية ومصرية لبيعها في بلادهم عليهم يتحققون ربحا يuous لهم ما أنفقوه في رحلة الحج (٣٧) .

بل انه قد وجد كذلك طريق اخر كانت تتبعه قافلة فزان المغربية ، عن طريق الصحراء الغربية ، فواحات الخارج ، فاسيوط ، فالقاهرة (٣٨) . وكانت هذه القافلة تأتى بالبلح والطرابيش الحسونية ، وتعود محملة بالمنتجات المصرية ، وما تجمع في مصر من تجارتها مع الجزيرة العربية (٣٩) .

على ان كثير من المغاربة اسقروا في مصر وعملوا في مجالات التجارة والحرف بها ، ويرجع ذلك الى الظروف التي تعرضت لها بلاد المغرب في

(٣٦) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر (١٥١٧ - ١٧٩٨) ، فصل ٢٦ - ٢٧ .

(٣٧) ليلى صياغ (دكتورة) : الوجود المغربي في المشرق المتوسط في مصر الحديث ، ص ٨٩ .

(٣٨) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أيام العصر العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، تصدر عن جامعة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ ، ص ١٤ - ١٥ .

نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة مما جعل المغاربة من أبرز المجاليات الإسلامية في مصر العثمانية . وقد لعبت المدن المغربية دوراً هاماً في التجارة العالمية في نهاية العصور الوسطى وخاصة في عهد الموحدين (٥٤١ - ٥٦٦٧ / ١١٣٠ - ١٢٦٩ م) حيث دانت بلاد المغرب تموجاً بنشاط تجاري داخلي وخارجي ، واسع النطاق ، فسارت القوافل متواصلة مابين البلدان المغربية ، وأفريقيا والسودان ، لاستيراد المواد الأولية والاستوائية ، وكذلك الذهب والرقيق ، كما كانت طرق التجارة مع بلدان الشرق الإسلامي ، البرية والبحرية ميسرة حيث كانت تمر عبر أراضي مصر وموانيها التي تحتل موقعها وسطاً . وكانت المدن والموانئ المغربية هي المصدر الأول للمدن الإيطالية وغيرها من بلدان أوروبا الراغبة في التجارة الأفريقية والشرقية . وقد أثرت المدن إثراً، خصماً من وراء هذا النشاط التجاري ، على أساس أنها أصبحت تقوم بدور الوسيط في نقل السلع الأفريقية والشرقية . وقد أثرت المدن إثراً، خصماً من وراء هذا النشاط والنشاط التجاري اللذين حظيت بهما بلدان المغرب العربي ، إلى الموقع الجغرافي الخاص الذي احتله المغرب ، وأثر تأثيراً بالغاً في تطور المسالك التجارية المغربية جنوباً وشمالاً ، وغرباً وشرقاً ، مما جعل مساهمة بلدان المغرب الإسلامي في التجارة العالمية ذات أهمية بالغة ، كما كان لهذا الموقع أثره في علاقات بلاد المغرب الحضارية بمنطقة البحر المتوسط وخاصة بمصر . على أن العامل الاقوى وراء دور المغرب الإسلامي التجاري والحضاري في منطقة البحر المتوسط – مع عدم انكار أهمية الموقع الجغرافي – إنما يرجع إلى استمرارية اتصاله بالشرق الإسلامي ، حضارياً وثقافياً ، وتجارياً . هذا إلى جانب الثنائية الاقتصادية التي شهدتها المغرب العربي في العصور الوسطى ، من ارتباط الفلاحية بالتجارة ، نظراً لأن كثيراً من المواد الفلاحية ،

أصبحت بفروع أساسية في قائمة التبادل التجارى ، ولاسيما بالنسبة للتجارة الصحراوية مثل : الحبوب ، والقمح ، والزبيب ، والصوف، وقصب السكر وغيرها . بالإضافة إلى الاستقرار السياسي الذى عرفه المغرب في بعض فترات تاريخه في العصر الوسيط الإسلامي ، حيث ساهم هذا الاستقرار في تطور المسالك التجارية وأمنها . ولم تحل النظم السياسية المختلفة دون الالتحام بين مراكز التجارة في البلدان المغاربية ، بل إنها حاولت أن تحقق لها الامن وتستغلها اقتصادياً في تدعيم مركزها السياسي والتجاري (٤٠) . على أن الجزء الأكبر من عائد هذا النشاط التجارى الذي شهدته بلدان المغرب ، عاد إلى فئات بعینها دون عامة الشعب ، وبخاصة فئة الحكام والرؤساء ، وفئة التجار ، التي ظهرت كفئة اجتماعية جديدة حيث عاش سكان المراكز التجارية معيشة فيها شئ كثير من المرفاهية والرخاء ، يعكس ما كان عليه الحال بالنسبة لسكنان الريف والمناطق الصحراوية (٤١) .

وتتجدر الاشارة إلى أن المغرب العربي قد تعرض للتفكك السياسي بعد انهيار دولة الموحدين (في سنة ٥٦٧ / ١٢٦٩ م) في جميع بلداته ، حيث أصبح هناك ثلاثة دول مسيطرة هي الدولة الحفصية في تونس ، ودولة بنى زيان في الجزائر ، ودولة بنى مرين في مراكش ، وكان النزاع بين هذه الوحدات السياسية التي انقسم إليها المغرب مستمراً، هذا إلى جانب بطرابلس التي قام النزاع بينها وبين الحفصيين ، مل أن النزاع كان قائماً في داخل

(٤٠) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المفارقة في مصر في العصر العثماني ، ص ١٢ - ١٤ .

(٤١) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، ص ٥ .

الدولة الواحدة ، كما كان يحدث في المناطق الشرقية من الجزائر وفي منطقة بلاد القبائل . ونوسوف يؤدى هذا التفكك السياسى والصراع الداخلى الذى هجرة كثير من المغاربة إلى المشرق عامه وإلى مصر بصفة خاصة حيث عملوا في مجال التجارة والحرف في الإسكندرية وغيرها من موانئ الجانب الشرقي من البحر المتوسط ، فضلاً عن كثير من المدن الداخلية . وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن نزوح كثير من أهل المغرب إلى مصر إنما كان يعود إلى حالة الرفاهية التي كانت تشهدها مصر في العصر المملوكي نتيجة لمرور التجارة العالمية بها فيقول : « ويبلغنا لهذا العهد عن أحوال القاهرة ومصر من انترف والغنى في عوائدهم ما يقضى منه العجب ، حتى ان كثيرا من الفقراء بالمغرب ، ينزعون من الثقلة إلى مصر لذلك ، ولما يبلغهم من ان شأن الرفه بمصر أعظم من غيرها » (٤٢) . ولهذا فإن معظم التجار والحرفيين المغاربة ، والقبائل المغربية ، الذين وفدوا إلى مصر واستقروا فيها أو مارسوا نشاطهم لفترة وعادوا إلى بلادهم كانوا من أبناء المدن والمناطق المغربية التي أصبحت بنكسة اقتصادية سواء نتيجة لعمليات الغزو الإسباني أو بسبب الصراعات الداخلية . وقد استقر هؤلاء في مدن مصر وريفها ومارسوا نشاطاتهم المختلفة من تجارية أو حرافية أو رعوية أو زراعية ، كما تزود بعضهم بزاد المعرفة والعلوم الدينية في الأزهر الشريف ، في وقت انتشرت فيه الفرق الصوفية المتعددة التي جعلت أتباعها يتلقىون على أيدي رجال الطرق الصوفية من المصريين . كما ان رغبة كثيرين من المغاربة لادة فريضة الحج أدت إلى توجههم إلى مصر وببلاد المشرق بصفة

(٤٢) ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : مقدمة ابن خلدون ، ص ٣٦٦ .

مستمرة وأستراكم الواضح في الحياة الاقتصادية والثقافية مع المصريين وأهالي المشرق الإسلامي^(٤٣) .

وتتجدر الاشارة الى أن مدينة الاسكندرية كانت بالنسبة للمغاربة محطة أساسية لهم حيث كانت تقع على طريق الحج والتجارة ولهذا فانهم أنشأوا واستأجروا بها الوكالات والمخازن لتخزين السلع التي يجلبونها من الهند والشرق الاقصى وموانئ شبه الجزيرة العربية والموانئ الواقعة في الجانب الشرقي من البحر المتوسط كما كون المغاربة تنظيماتهم الاجتماعية في الاسكندرية وأخذوا يؤدون دورهم في بيتها الحضارية في العصور الوسطى^(٤٤) والحديثة . وينطبق اهتمام المغاربة بالاسكندرية على موانى مصر الأخرى الواقعة على البحر المتوسط مثل رشيد ودمياط ، او تلك الواقعة على البحر الاحمر مثل السويس والقصير . بل انهم ربطوا هذه الموانى عن طريق عمليات الاستيراد والتصدير بالموانى التجارية العربية الأخرى والموانى الاوربية التي كان لهم فيها وكالات تجارية ، كما كان لهم وكلاء يقيمون بهذه الموانى^(٤٥) .

وتتجدر الاشارة كذلك الى الجاليات الأجنبية الأخرى التي كان لها نشاطا تجاريا ملحوظا في الموانى المصرية المطلة على البحر المتوسط والتي لقيت عناية كبيرة من قبل المالكين في نهاية العصور الوسطى والعثمانين

(٤٣) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ٢٧ .

(٤٤) سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الاثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندرى في العصور الإسلامية الوسطى ، ص ٢٠٧ .

(٤٥) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ٥٨ .

في العصور الحديثة . فقد أنشأت السلطات الملكية على نفقتها فنادق خصمتها للتجار الأجانب . وكانت الإسكندرية تضم عدة فنادق لجاليات أجنبية مختلفة ، أولها وأهمها جالية البنادقة ، ولهم فندقان ، على حين كان فندق واحد لكل من أهل جنوه ، وبيزا ، وفلورنسا ، وأنكونا ، وبالرمو ، وكان لأهل نابولي فندق بالاشتراك مع آخرين من الإيطاليين . أما الفرنجة فكان لهم فنادق خاصة بهم ، ولاسيما أهل مرسيليا وتاربون وقطالونية وراجوزة . ورغم أن جزيرة كانديا كانت أحدى مستعمرات البنادقية إلا أنه وجد لها فندق خاص . وكان لمملكة قبرص قبل غزوتها بطرس لوزينان وليونان الإسكندرية فندق ، وللاتراك فندق ، وكذلك فندق لكل من المغاربة ، والتنار ، المعروف أن التنار بصفة خاصة كانوا يجلبون الرقيق للتجارة فيهم ولذا كان فنادقهم عبارة عن سوق للرقيق ^(٤٦) .

وحرصت السلطات الملكية كذلك على رعاية الشؤون الروحية للجاليات الأجنبية فسمح لهذه الجاليات ببناء الكنائس في نطاق الفنادق المشار إليها ، فكان لكل فندق كنيسة ، ولكل جالية قساوستها ، بينما كانت للجاليات الكبرى كنائس كبيرة مثل كنيسة القديس نيقولا لأهل بيزا ، وكنيسة القديسة ماريالك الجنوبيين ، وكنيسة القديس مشيل للبنادقة ^(٤٧) . وقد ظل هذا الحال على ما هو عليه في عهد العثمانيين في العصور الحديثة . وكانت سفن البنادقة والجنوبيين تنقل المتأخر من مصر والشام إلى أوروبا في العصور الوسطى ، وكانت سفن البنادقة بصفة خاصة تحمل الجزء

(٤٦) إبراهيم على طرخان (دكتور) : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ١٣٨٢ - ١٥١٧ ، ص ٢٨٣ - ٢٨٤ .

Heyd, W.: Op. Cit., p. 433.

(٤٧)

الاكبر من تجارة الشرق الى ميناء البندقية^(٤٨) ، حيث تمرض في سوق « رি�التو Rialto » هناك ، لتبيع في المزاد العلنى للتجار الالمان والانجليز وغيرهم . وكان سوق « رি�التو » الكبير في البندقية من أشهر الاسواق التجارية في حوض البحر المتوسط ، حيث كانت المتأخر الشرقية تتوضع في عربات وترحف بها من هذا السوق متوجهة الى أنحاء اوروبا عن طريق سهل لومبارديا ، وممرات جبال الالب ، وطريق الراين ، لتعمل أخيرا الى تجارة التجزئة في شتى البلاد الاوروبية ليتلقفها المستهلكون هناك^(٤٩) . واستطاعت جمهورية البندقية أن توظد علاقاتها مع سلاطين المماليك — الذين كانوا يحكمون مصر والشام والمحجاز — وأن تهتك معظم المتأخر الشرقية الواردة الى مصر عن طريق البحر الاحمر أو الواردة الى موانى الشام عن طريق الخليج العربي والعراق^(٥٠) .

وقد أنشأت جمهورية البندقية ستة أساطيل بحرية من طراز واحد كانت تمخر عباب البحر المتوسط في نهاية القرن الخامس عشر ، وعيت لكل منها الموانئ التي يتزدّد عليها ، واستهدفت من توحيد طراز سفنها أن يكون في استطاعة قناصلها ووكالاتها في موانئ البحر المتوسط إمداد السفن بما تحتاج إليه من قطع غيار ذات طراز واحد . وجنت البندقية أرباحاً خيالية من نقل التجارة الشرقية إلى أوروبا ومن تصريفها هناك . وأصبح الاتصال بالبحرية مطمحها ترثّنوا إليه أنظار الشباب من أهل البندقية الذين رأوا في البحرية المجال الطبيعي للمال والشهرة والمجد .

^{٤٨}) نعيم زكي نهmis (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٥٠ .

^{١٥} (٤٩) عبد العزيز الشنawi (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ط٢ ، ص ١٠٧ .

(٥٠) محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية من ٦٠

ولقيت البندقية منافسة شديدة من جمهورية جنوة في ميادين التجارة الشرقية ، وتطورت هذه المنافسة التجارية الى صراع سياسي حاد لعب فيه البحر المتوسط دورا حاسما . وتراءت لهاتين الجمهوريتين الفرورة السياسية في اخضاع البحر المتوسط او على الاقل الجزء الهام منه بالنسبة لنشاطهما — لمسيطرة أى منهما . وكانت نتيجة ذلك أن طالبت البندقية بتصريح سيادتها على البحر الادرياتيكي ، كما ادعت جنوة بحق السيادة على بحر ليجوريا . وقد قبلت أوربا بادعاءات هاتين الجمهوريتين ل حاجتها الملحة الى التجارة الشرقية وب خاصة التوابل والمعطور والعقاقير ، وبذلك ظهرت في تاريخ العلاقات السياسية الدولية لأول مرة فكرة سيادة الدولة على البحار^(٥١) . ولم يقف التنافس السياسي بين البندقية وجنوه عند هذا الحد ، بل قام بينهما صراع حربى بالغ العنف انتهى بهزيمة أهالى جنوة في معركة « كيوجا Chioggia » وعلى أثرها عقد صلح « تورينسو » سنة ١٣٨١م . ولكن جنوة راحت تفكر في وسيلة أخرى لحرمان البندقية من مصادر قوتها وثروتها ، وذلك بایجاد طريق بحري متصل تائى منه المسلح الشرقية الى أوربا^(٥٢) . وهذا سيفسر التقارب الذى تم بينهم وبين البرتغاليين في مطلع العصور الحديثة .

وتتجدر الاشارة كذلك الى دور فلورنسا في النشاط التجارى مع مصر والشام . خاصة وأن أسرة « ديميدتشى » الحاكمة في فلورنسا في نهاية العصور الوسطى عملت على توثيق صلاتها التجارية مع السلطات

(٥١) حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولى العام فى وقت السلم ، ص ٥٦٧ - ٥٦٨ .

(٥٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، جا ، ط ٣ ، ص ١٠٩ .

الملوكية^(٥٣) . أما بالنسبة لأهل فرنسا وأسبانيا فقد كانوا يحصلون على حاجتهم من المتأخر الشرقية من أسواق مصر وشرق البحر المتوسط عن طريق الوسطاء البنادقة والجنوبيين^(٥٤) .

ونظراً لاستعمال البنادقة بالحجم الأكبر من التجارة الشرقية سواء من ناحيتي النقل أو التسويق فقد شكلوا أكبر جالية في مدينة الإسكندرية في نهاية العصور الوسطى ، كما كان لهم حى خاص . وكان يشرف على مصالحهم قنصل معين من قبل جمهورية البنديسيه . وكان حى البنادقة بالإسكندرية يضم فندقين وحمامًا ومخبزاً وكنيسة ، كما كانت حكومة المالك قد أعفتهم من عدة ضرائب وسمحت لهم بالتجارة في الملائكة والاحجار الكريمة والفراء . ولهذا لم يتتردد البنادقة في جلب كل ما تحتاج إليه مصر من السلع الخارجية ، حتى الأدوات الحربية التي حرمت البابوية التجارية فيها ، كالأسلحة والمعدات والأخشاب والرقيق والكبريت والقصار وكذلك بعض المواد الغذائية كالحبوب والزيت ، وذلك رغم تشدد البابوات وتكتلיהם فرسان الاستيلارية والداوية بمراقبة البحار ومنع وصول هذه المواد إلى المسلمين^(٥٥) . وقد زادت نسبة اهتمام البنادقة بالتجارة الشرقية بعد فتح الإنترال العثمانيين لمدينة القدس^(٥٦) عام ١٤٥٣ م . حين أصبحت التجارة في البلقان وموانئ البحر الأسود صعبة ومحفوظة بالمخاطر ، ولذلك وجه البنادقة عنائهم إلى حوض البحر المتوسط الشرقي ، ونشطت

(٥٣) نعيم زكي نهضى (دكتور) : المرجع السابق ، أشار إلى الامتيازات التجارية التي منحتها السلطنة المملوكية لطائفة الفرنجيين (أهل فلورنسا) في مصر والشام في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ، الملحق ١٢ - ٢٥ . ٤٣٩ - ٤٨١ .

(٥٤) نعيم زكي نهضى (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٠ .

(٥٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : العصر المماليكي في مصر والشام ، ص ٢٩٤ - ٢٩٥ .

أعمالهم التجارية في موانئه ومدنه كالاسكندرية وبيروت وحلب ودمشق^(٥٦) . وكانت قوافل البندقية التجارية البحرية تصل إلى مصر مررتين في كل عام ، في ينابير وفي الخريف ، وكانت تتكون القافلة في العادة ما بين ثمان سفن وثلاث عشرة سفينة ، وتقدر حمولتها بـ مليوني بندقى على أقل تقدير . ولهذا تمتزج البندقية بالمكانة الأولى بين الجاليات في الأوروبية في الإسكندرية طوال العصر المملوكي في نهاية العصور الوسطى وأثناء العهد العثماني في مطلع العصور الحديثة^(٥٧) .

وتتجدر الاشارة إلى أن العملة الأجنبية كانت متداولة في أسواق مصر في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . ومن أمثلة هذه العملة عملة البندقية والتي تعرف باسم « دوكات Ducat » نسبة إلى دوك — وهو « الدوق Doge » . وكانت العملة الخاصة ببلاد الفرنجة في فرنسا وإيطاليا والاراضي المنخفضة المسممة الأفرنتية ، جمع أفرننتى ، وهي التي تعرف « بالفولورين Florino » ، وأن عرفت العملة الأجنبية بوجه عام باسم « مشخصة » ، وذلك بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهها^(٥٨) .

وليس أدل على انتعاش الحياة الاقتصادية في أيام الملوك في نهاية العصور الوسطى من وجود كلمات كثيرة تدل على ذلك ، مثل : دكاكين وحوانيت ومخازن وقياسات وخانات ووكالات وفنادق ، وهذه الأخيرة كانت

(٥٦) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المراجع السابق ، وقد أشار إلى الاقتنيات التي عقدتها البندقية مع السلطات المملوكية في نهاية القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر الميلاديين الملحق ١-١٢ ص ٣٧٣ - ٤٨٠ .

(٥٧) شارل ديل : البندقية جمهورية ارستقراطية ، ص ١٤١ - ١٤٣ .

(٥٨) عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر السيوطي ، ص ٢٧ .

أكثرها تتكون من عدة طوابق ، عبارة عن غرف مختلفة ومخازن ، لها فناء داخلي ، يحتوى على البضائع والدواب ، ويسكنها غالبا التجار الاجانب ، يرأسهم القناصلة — مفرداتها قنصل — وهم كبار الفرنج ، فكانت الفنادق توجد في كل أنحاء المدن المصرية من الاسكندرية الى أسوان^(٥٩) .

وتحدر الاشارة الى مظهر الشراء في عصر الدولة المملوكية والبذخ الذي عاشته الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان المملوكى ، حتى أنه من كثرة الاموال كانت له خزانة عرفت « بخزانة الخاص » ، كما أصبحت القلعة — مقر الحكم المملوكى — تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة . ثم هذه المنشآت الضخمة التي تركها معظم السلاطين المالكين ، من جوامع كجامع السلطان حسن وببرقوق والمؤيد — وزوايا ومدارس وسبيل وببيمارستانات وحمامات وقلاءع — كقلعة قايتباى بالاسكندرية — وتحف هازالت تحتل الصدارة بين آثار مصر الاسلامية ، وأصبحت القاهرة في العصر المملوكى درة في جبين الشرق . كما ظهرت دلائل البذخ في حياة القصور والحفلات^(٦٠) التي طبعت بطبع الاناقة المعبرة عن الانتعاش الاقتصادي الذى ظهر في شكل ثراء وبذخ نادرین ، وحتى في ابداع الصناعة والحرف والفنون وفي ازدهار الحياة الاجتماعية . وكان مصدر هذا الشراء التجارة العالمية العابرة بمصر آنذاك ، وما يفرض عليها من ضرائب متنوعة ، ولهذا سوف تتأثر الحياة الاقتصادية بهذا الشراء العظيم الذى يتمتع به سلاطين المالكين ، فكانت وظائفهم في فرض الضرائب

(٥٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باى ، اخر سلاطين المالكين في مصر ، دراسة للاسباب التي أنهت حكم دولة السلاطين المالكين في مصر ، من ٧٧ .

(٦٠) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٢، ص ١٢٦ .

الداخلية وجمعها في أحيان كثيرة تخف على الزراع والمصانع والتجار نوعاً ما ، وفي هذا تخفيف كبير عن كاهل الرعايا وعلى الأخص الطبقات الفقيرة وبخاصة الفلاحين ، كما فيه تشجيع للزراعة والصناعة ، وانتشار التجارة (٦١) . غير أن الأمر سيتغير بما كان عليه عقب وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ وتحويلهم الحجم الأكبر من التجارة العالمية عن مصر والشام والبحر المتوسط إلى هذا الطريق الجديد .

وتجدر بالذكر أن أسعار السلع الشرقية كانت ترتفع ارتفاعاً فاحشاً بسبب الضرائب الجمركية الباهظة التي كان يفرضها حكام الدول الشرقية الواقعة على الطريق من أماكن تصديرها إلى الشواطئ الأوروبية وبخاصة سلاطين المماليك ، فقد كانوا يفرضون رسوماً جمركية عند تفريغ البضائع من السفن في الموسيس ، ورسوماً جمركية أخرى عند إعادة شحنها في الإسكندرية . وكانت هذه الرسوم تبلغ سدس قيمة السلع عند مرورها في كل من المدينتين . هذا فضلاً عن أجور نقلها وأخطار النقل كأعمال القرصنة والحروب وتنوع وسائل النقل عبر الصحاري والبحار . ومع ذلك فقد كانت متاجر الشرق توفر أنواع التجارة ربما ، وقد عاش كثير من التجار الأوروبيين عيشة الملوك من الارباح الخيالية التي كانت تدرها تلك التجارة (٦٢) . على أن ثمة إجراءات كان لابد من اتخاذها عند استقبال السفن التجارية في الموانئ المملوكية في مصر والشام والمطلة على البحر المتوسط في نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة . ولدينا مثل

(٦١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : معلم التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر ، ص ٥٢ .

(٦٢) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، ج ١ ، ط ٣ ، ص ١١٠ .

عن الاجراءات التي تتخذ في احدى هذه الموانئ وهو ميناء البرلس .
فالمعلوم ان للبرلس مينائين ، أحدهما جديدة ومفتوحة من ناحية الشمال
لاستقبال السفن المسيحية ، والميناء القديمة مفتوحة من جهة الغرب
لاستقبال السفن الاسلامية فقط ، وهذا المدخل الاخير مقفل أمام المسيحيين
حتى ولو كانوا واصلين من جهة البر . وعندما تصل السفينة الى الميناء
ويستقبلاها رجال من موظفى الميناء ، يصعدون عليها ، وهؤلاء عادة مندوبيين
من قبل نائب الاسكندرية ، وتتلاخس مهمتهم في اثبات جنسيتها عن طريق
القنصل الذى تتبعه او عن طريق مواطنיהם المقيمين بالشغر ، ومعرفة
عدد ركابها وأسمائهم وأنواع السلع التى معهم ، ثم يرسل هؤلاء الموظفون
هذه البيانات الى نائب شعر الاسكندرية ، فيبلغها بدوره الى السلطان
بالمقاهرة . ويتم تبادل الرسائل بواسطة بريد الحمام الزاجل . فاذا تمت
هذه الاجراءات ، على التجار ان يدفعوا رسما مقررا كضمان ، قدره دوك
واحد (Ducat) زاد بعد ذلك الى اثنين عن كل رأس منهم ، ويدفع كل منهم
رسما اخر قدره ٢٪ بالنسبة لما معهم من النقود ، ثم يسمح لهم بعد ذلك
بالنزول الى الميناء ، حيث يوجدون المأوى للإقامة ، والمخزن لبضائعهم ، في
الفندق الخاص لمواطنيهم من بنى جنسهم .

وكان هؤلاء التجار — في العادة — يعملون في تسويق منتجات بلادهم
كما يشترون ما يلزمهم من المتاجر الموجودة في مصر والسلع المنتجة فيها ،
وثلاثة التي ترد اليها من الشرق ، وكانت الاخيرة تدر عليهم أرباحا طائلة ،
كما كانت تدر أرباحا طائلة أيضا على السلطات المملوكية . اذ فرضت حكومة
المالك الرسوم المقررة على التجارة المارة ببلادها ، وذلك بجانب رواج
التجارة الداخلية في هذه السلع وما يتزتبا على ذلك من فوائد للحكومة
المملوكية . ولکي تحصل مصر على مزيد من الربح من التجار الشرقية ،

اتبع السلاطين المماليك سياسة الاحتكار وزادوا في رسوم المرور . اذ بدأ السلطان برسبای احتكار تجارة التوابيل ، وأصدر لهذا الغرض مرسوما في عام ١٤٢٨ يحرم به شراء التوابيل من غير مخازن السلطان . وفي نفس الوقت أجبر تجار الشرق على شراء البضائع التي تتبعها مصر بسعر مرتفع مثل العقيق والفحاس وغيرهما من السلع الرائجة . وساعد على تنفيذ سياسة الاحتكار أن الحكومة المملوكية كانت تجبي رسومها عينا ، وقد ترتب على ذلك ارتفاع أسعار السلع الشرقية ارتفاعا باهظا مثل التوابيل والحرير على وجه الخصوص . فمثلا صار التجار الأوروبيون يشترون قنطرار الفلفل الاسود بسعر يتراوح بين ١٣٠ - ١٢٠ دينارا ، بعد أن كانوا يشترونه من قبل بسعر ٥ دينارا في القاهرة و ٨٠ دينارا في الاسكندرية ^(٦٢) .

وقد ضع التجار الأوروبيون من مغalaة المماليك في احتكارهم للتجارة الشرقية وفرضهم الكوس الباهظة عليها . وجاء أول احتجاج من جانب القطلانيين عام ١٤٣٢ حين أبلغ ممثوهم السلطان برسبای أنهم رفضوا شراء البضائع من مخازن السلطان ، غير أنهم لم يظفروا باجابة طيبة مرضية ، لأن برسبای لم يغفر لهم ما فعله قراصنتهم . كذلك احتجت مملكتا فشتلالة وأرغونة ، وقابلتا هذا الاجراء بمثله ، وذلك برفع أثمان السلع الأوروبية التي ترد إلى مصر . بل أن البنادقة أخذوا يفكرون في قطع علاقاتهم التجارية مع مصر فأراضهم السلطان وأن لم ينزل عن احتكاراته . وحدث أن هاجمت أرغونة وقشتالة السفن المملوكية على سواحل سوريا فأجاب

السلطان بالقبض على التجار البنادقة في الاسكندرية ومصادر متاجرهم (٦٤)

ورغم أن حدة الاحتكار الحكومية قد خفت في عهد السلطان جقمق ، إلا أن معاملة التجار الأجانب لم تستمر على حال واحد طوال عهود المسلمين بعد جقمق ، حتى ضاق التجار ذرعاً بهذه المعاملة . وهذا مما حملهم على الانتقام في عام ١٤٧٥ م ، إذ احتلوا على بعض تجار الاسكندرية من الوطنيين وأسرؤهم وخرجوا بهم إلى بلادهم . وكان من بين هؤلاء التجار الأسرى بعض تجار السلطان قايتباي ولذلك أمر هايتباي نائبه في التغز بالقبض على جميع التجار الأجانب فيه وأمرهم بمسكانته ملوكيهم ، ثم استطاع التجار المصريون أن يفدوها أنفسهم بالمال (٦٥) .

على أن الحكومة المملوكية ظلت تجبي مكروساً على التجارة الشرقية وصلت نسبتها إلى العشر ، غير أن هذه النسبة زيدت تدريجياً ، حتى جبى الأمير حسين الكردي نائب السلطان قونصوه الغوري في جده عشرة أمثال العشر ، أي مثل قيمة البضائع تماماً . ومن المرجح أن هذه الزيادة في أعقاب وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ مما أضعف من حجم التجارة الشرقية المارة بطريق البحر الأحمر وأدى وبالتالي إلى معلاة السلطات المملوكية في جدة في رفع نسبة المكرس لتحمل على أكبر عائد ينطوي احتياجاتها مع قلة حجم التجارة الواردة .

ولم تكن المعاملة في الموانئ المملوكية الأخرى خيراً منها في جدة ، فازدادت الرسوم الجمركية على التجارة الواردة إلى الاسكندرية ودمياط

Lane-Poole, S. : A History of Egypt in the Middle Ages, p. 340. (٦٤)

(٦٥) ابن ايس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٢ .

من السلع الاوربية مما جعل الاوربيين يمتنعون بدورهم عن التصدير الى الموانى الملوکية في مصر والشام وأنذاك^(٦٦) .

ومن القيود التي فرضها كذلك الحكام الماليك على التجار الاجانب منهم من مغادرة فنادقهم لمدة ساعتين أو ثلاثة ساعات خلال صلاة الجمعة . ويرجع أساس هذا الاجراء الى محدث سنة ١٣٩٥ م عندما هاجم بطرس الاول لوزنيان ملك قبرص الاسكتدرية في يوم الجمعة وأحتل المدينة ونهبها . ومن القيود كذلك أغلاق الفنادق في المساء على من فيها ، وكان يتولى حراستها حراس من قبل السلطات الملوکية^(٦٧) . وقد كان لهذه القيود في مجموعها أثرا سلبيا على الاجانب الاوربيين بوجه عام ، مما سيشجعهم الى جانب اعتبارات عديدة أخرى سنشير اليها فيما بعد . على التوجه الى كشف الطريق البحري المباشر بين اوربا والهند في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي ويتمكرون من الوصول الى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح في عام ١٤٩٨ .

(٦٦) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠ .

(٦٧) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

الفصل الثاني

دور البرتغاليين في تحويل التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي

اتجه البرتغاليون منذ مطلع القرن الخامس عشر الميلادي نحو عمليات الكشف الجغرافية فيما وراء البحار نتيجة للنمو المتزايد للشعب البرتغالي ذاته ، وظهور تطلعاته القومية ، ورغبته في السيطرة والثراء . كما أدى احتدام الصراع الديني بين المسيحيين الكاثوليك والمسلمين في شبة جزيرة أيبيريا في نهاية العصور الوسطى إلى اتجاه البرتغاليين إلى مطاردة المسلمين على ساحل أفريقيا الغربية ، وإصرارهم على انتزاع التجارة الشرقية من أيديهم عن طريق كشف طريق بحري مباشر إلى البحار الشرقية . وكان البرتغاليون قد تأثروا بتحريض أهالي جنوه الذين سعوا إلى القضاء على ثروة أعدائهم ومنافسيهم البندقية بعد أن جنوا أرباحا طائلة من التجارة الشرقية ^(١) . وكان الحجم الأكبر من هذه التجارة يمر بمصر وينقل منها إلى عالم البحر المتوسط طوال العصور القديمة والوسطى ، وكانت البندقية بصفة خاصة — كما سبق أن أشرنا — تقوم بدور الوسيط بين موانئ البحر المتوسط الإسلامية والعالم الأوروبي آنذاك .

واستطاع البرتغاليون أن يحققوا غايتهم مستذدين إلى قوتهم وجهودهم البحرية من جهة ، وإلى جهود استطلاعية أخرى اتسمت بالسرية

وتركزت حول جمع المعلومات عن مصادر تجارة الشرق ، وطرق هذه التجارة ،
وانواع البضائع الشرقية ، وامكانات القوى التي سيحاربونها من جهة
أخرى ^(٢) .

وقد استولى الملك البرتغالي « يوحنا الاول Jean I » على سبته ^(٣)
في سنة ١٤١٥ ^(٤) وأقطعها لوالده الامير هنري الشهير باللاح والمعروف
بحقه وكراهيته المتناهية للإسلام والمسلمين ، والذي سيكرس حياته
ويبذل جهوده لاكتشاف طريق بحري جديد يدور حول افريقيا للوصول
إلى الهند للسيطرة على تجارة المسلمين ^(٥) . وبدأت أولى حملات الكسوف
البحرية البرتغالية لسواحل غرب افريقيا في سنة ١٤١٨م . وقد لجأت
البرتغال إلى إضفاء الشرعية الكاثوليكية على التوسعات البرتغالية في أعقاب
فتح الممانيين للقدسية في سنة ١٤٥٣ عندما حصلت على براءة البابا
نيقولا الخامس في اليوم الثامن من يناير سنة ١٤٥٤ بأحقية القاج البرتغالي
في امتلاك سبته وغيرها مما يؤكد توفر الروح الصليبية في توسيع البرتغال
فضلاً عن الدوافع السياسية والاقتصادية الغالية ^(٦) . وقد استمرت
الحملات البحرية البرتغالية تكتشف الساحل الغربي لافريقيا حتى تمكن

Alvarez, F.: Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the
(٢) Years 1520 & 1527, pp. 265 & 270.

(٣) مدينة سبته هي مدينة مغربية تطل على ساحل البحر المتوسط وقسم
احتلها البرتغاليون عام ١٤١٥ ، الا أن هذا الاحتلال لم يدم طويلاً وذلك بسبب
احتلال الأسبان لها بعد ذلك والذي لا يزال حتى الان ، وقد شمل هذا الاحتلال
في نفس الوقت مدينة مليلة القرية منها .

Atkinson, W. C. :A History of Spain and Portugal, p. 99. (٤)

(٥) احمد مختار العبادى (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس
ص ٤٥٥ .

(٦) براهيم شحاته حسن (دكتور) : وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب
١٥٧٨هـ / ١٩٨٦م) ، ص ٢٩ .

« بارتلميودياز Bartholomew Diaz » من الوصول الى أقصى نقطة في هذا الساحل واكتشاف الطرف الجنوبي لأفريقيا الذي عرفه « برأس العواصف » والذي أطلق عليه ملك البرتغال « يوحنا الثاني Jean II (١٤٨١ - ١٤٩٥) » « رأس الرجاء الصالح » تيمناً بالكشف الجديد وذلك في عام ١٤٨٧ م (١) .

وقد تمكن الرحالة البرتغالي « بيرودي كوفلامام Pero de Kovilam » في منتصف سنة ١٤٨٧ من الوصول الى مصر عبر البحر المتوسط ، وأبحر منها الى ميناء سواكن عبر البحر الاحمر ، ثم اتجه جنوباً حتى وصل الى عدن ، ووصفها بأنها كانت آنذاك مدينة عظيمة وأن بها تجاراً من جميع الأجناس ، وبعد ذلك واصل رحلته الى الهند (٢) . وعند عودته قام بزيارة معظم المناطق الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لأفريقيا ، كما مر بمدينة زيلع ، ثم اتجه جنوباً حتى وصل الى « سوقالا » (٣) . وقد عاد هذا الرحالة الى مصر حيث تمكن من جمع معلومات عن الحبشة دفعته للتوجه اليها . وكانت رحلته الى الحبشة — التي كانت تتبع من الناحية العقائدية الكنيسة الارثوذكسية اليعقوبية في مصر — بداية لسلسلة من رحلات المستكشفين والبعثات الاوربية الكاثوليكية التي وفدت اليها أثناء القرن السادس عشر ، والتي كانت تهدف الى استقطابها للكاثوليكية (٤) .

Kammerer, A.: *La Mer Rouge, L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'Antiquité*, T. II p. 75. (١)

Playfair, R. L.: *A History of Arabia Felix or yemen, Selections from the Records of the Bombay Government, New Series*, XLIX, p. 96. (٢)

Coupland, R.: *East Africa and Its Invaders*, p. 42. (٣)

Johnston, H.: *History of the Colonization of Africa by alien races* p. 32. (٤)

لتطويع العالم الإسلامي وانقراض التجارة الشرقية التي تشكل مصدر قوته آنذاك^(١١) . وقد أصبح « بيرودي كوفلام » مستشاراً لملك الحبيبة (قسطنطين الثاني) ثم رسوله إلى ملك البرتغال « يوحنا الثاني » للاتفاق على حملة مشتركة لتحرير القدس ، ولكن المبعثة لم تبتعد كثيراً بسبب نزاع نشب بين حرس المبعثة ، وبعض الأهل ، وهكذا فشل هذا المشروع^(١٢) . وعلى أية حال فقد مهدت جهود الرحالة « بيرودي كوفلام » السبيل أمام الرحالة « فاسكوندا جاما Vasco da Gama » عندما قام برحلته حول رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٧ ومر بالساحل الشرقي لأفريقيا حتى وصل إلى موزمبيق حيث وجد قارباً على متنه بعض الزنوج وأحد البحارة ، ظنه البرتغاليون في بداية الأمر من المغاربة . وعندما ما اقتربت السفن البرتغالية من القارب ، هرع الزنوج والقوا بأنفسهم في البحر وفروا إلى الساحل بينما نقل البحار إلى سفينة القيادة البرتغالية حيث أحسن « داجاما » استقباله ، واكتشف أن الرجل هندي ، وليس عربياً مغربياً وأنه من أهل « كمباي Cambay » بالهند ويدعى « دافان » ، وقد اتخذه داجاما مستشاراً له لأنّه كان خبيراً بالتواابل ومن سماستها . وقد وافق هذا الملّاح على مرافقة البرتغاليين إلى الهند ، وتعهد بتزويدهم بحمولة من التوابيل نظير توصيله إلى بلاده^(١٣) . كما استجاب شيخ موزمبيق لطلب « داجاما » وزوده بأثنين من المرشدين ، إلا أنهما تمكنا

(١١) بانيكار ، ك. م. : آسيا والسيطرة الغربية ، تعرّيف عبد العزيز توفيق جلويد ، ص ٢٩ .

Ziade, M. : Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth Century, Vol. I., pp. 287, 288.

Howe, Sonia: Op. Cit., pp. 193 & 195.

(١٢)

(١٣)

من الفرار عندما تأكدا أن البرتغاليين من المسيحيين مما أدى إلى استخدام البرتغاليين العنف مع الأهالى ^(١٤) . ولهذا لم يغامر «داجاما» بالرسو بأسطوله في منبسطة ، عندما شك في احتمال قيام ملكها بتدمير سفنه وأغرقها انتقاما لما فعله ضد أهالى موزمبيق . وعندما وصل البرتغاليون بعد ذلك إلى ميناء مالندي — الواقعة حاليا في كينيا — لقى داجاما فيها ترحيبا من ملكها، خوفها أو ضعفا ^(١٥) . فلما عزم على مغادرتها بعد عدة أسابيع ، طلب من صاحبها إمداده بملاح يرشده إلى الهند ، فاستجاب له الملك وأمده بملاح ماهر قاد أسطوله إلى قاليقوط ، فوصلها في مايو سنة ١٤٩٨ ^(١٦) . وإذا كان ذلك ما أوردته الكتابات البرتغالية حول هذا الموضوع فإن أول من أشار إليه من المؤرخين العرب قطب الدين النهروالى الذي أشار إلى أن البرتغاليين «دلهم شخص ماهر يقال له أحمد بن ماجد ، صاحبه كبير الفرج و قال لهم : لا تقربوا الساحل من ذلك المكان ، و توغلوا في البحر ثم عدوا ، فلا تبالكم الأمواج . فلما فعلوا ذلك ، صار يسلم من الكسر كثير من مراكبهم . فكثروا في بحر الهند . . . و صارت الإمداد تترافق عليهم من البرتغال . و صاروا يقطعون الطريق على المسلمين أسرا و نهبا ، و يأخذون كل سفينة غصبا ، إلى أن كثر ضررهم على المسلمين و عم أذاهם على المسافرين » ^(١٧) . وعلى هذا النسخ اعتمد المستشرق الفرنسي

Strandes, J. : The Portuguese period in East Africa, pp. 20-24. (١٤)

Strong, A. : The History of Kilwa, (J. R. A. S.) London, 1895, (١٥)
pp. 397, 428

(١٦) جيان . وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية ،
ص ٢٠٩ .

(١٧) قطب الدين النهروالى ، محمد بن احمد الحنفى المکى : «البرق
اليمني في الفتح العثماني » مخطوطه نشرها حمد الجاسر عام ١٩٦٧ ، ص
١٨ - ١٩ .

« جبريل فران G. Ferrand » . فيما ذهب اليه من أن أَحمد بن ماجد العربي المسلم هو الملاح الذي قاد أسطول « فاسكوداجاما » من مالندي إلى موطن التوابل في قاليقوط ^(١٨) . ومن المرجح أن دور ابن ماجد انحصر في أداء النصح وتقديم المشورة للقائد البرتغالي « فاسكوداجاما » وأمداده بالمعلومات التي ساعدت على سلامة سفنه ، وتعليمه الطريق قوله ووصفا ، وليس عملا وقيادة . أما الملاح الذي قام بمهمة ارشاد الأسطول البرتغالي إلى الهند ، فهو ذلك الملاح الهندي الذي أشارت إليه المصادر البرتغالية . وبذلك « لا تلقى المسؤولية كاملة على ابن ماجد في وصول البرتغاليين إلى الهند . خاصة وأن البرتغاليين آنذاك لم يكتشفوا عن أهدافهم الحقيقية ، ولهذا كان من السهل عليهم العثور على من يتعاون معهم ، طالما كانت معاملتهم حسنة ، وتتكلموا باعطاء الأجر المناسب » ^(١٩) .

وعلى أية حال ، فقد استغرقت رحلة « فاسكوداجاما » ثلاثة سنوات (١٤٩٧ - ١٤٩٩) عاد بعدها من الهند إلى لشبونة في شهر سبتمبر سنة ١٤٩٩ . وقام « فاسكوداجاما » أثناء رحلته بمحاجمة أحدى السفن التجاري العربية واستولى على مابها من بضائع ، ثم أمر باغرافها بمن تحملهم من الركاب . كما قام أثناء رحلته الثانية إلى الهند في سنة ١٥٠٢ بتكليف أحد قادته بالاقامة الدائمة على رأس خمس سفن حربية عند مدخل البحر الأحمر لمحاجمة السفن الإسلامية ولمنع السفن المختلفة من المتاجرة أثناء ابحارها

Ferrand, G. : Le pilote Arabe de vasco de Gama, pp. 290-307, Art Shihab Al-Din, in ENC. of Islam, Vol. IV, p. 368.

(١٨)

(١٩) محمد عبد العال أَحمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكودي جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الأمريكية بجامعة القاهرة ، العدد الخامس ١٩٧٦ ، ص ١٥٥ - ١٦٧ ، ١٧٨ .

في مياه المحيط الهندي الا بتصريح خاص من قبل البرتغاليين (٢٠) . وقد اشتبه « فاسكوداجاما » في مهمته عندما قام في شهر يناير سنة ١٥٠٣ بمهاجمة سبع سفن اسلامية واستولى عليها ، بل أنه قام بقتل بعض ركابها وأسر البعض الآخر وفي ذلك يورد المؤرخ « بامخرمة » في حولياته (عن سنة ٥٩٠٨ هـ التي يوافق مطلعها اليوم السابع من يونيو سنة ١٥٠٢ م) . أن : « في هذه السنة ظهرت مراكب الفرنج في البحر بطريق الهند وهرمز وذلك التوالي ، وأخذوا نحو سبعة مراكب وقتلوا أهلها وأسرموا بعضهم » (٢١) . « ثم يشير ابن ایاس » في حولياته عن سنة (٥٩١٢ هـ) يواافق مطلعها ٢٤ مايو ١٥٠٦ م) . « وفي هذه السنة قويت شوكة الفرنج وحصل على المسلمين منهم ضير عظيم في ناحية الهند وهرمز ، أهلكم الله » (٢٢) . ولم يكتف البرتغاليون بذلك بل انهم هددوا جده في سنة ١٥٠٥ (٢٣) ، وتمكن بعض جواسيسهم من التسلل الى مكة نفسها (٢٤) . على هيئة حجاج في زي عربي وكشف أمرهم ، وكان ملكهم قد أقسم أن يستولى على مكة وأن يقوم بنبش قبر الرسول — عليه السلام — في المدينة المنورة (٢٥) . وتعتبر الرحلة التي قام بها « فاسكوداجاما » الى الهند بداية للمرحلة الاولى في تاريخ البرتغاليين (بلاد الشرق ، اذ تطورت

Hunter, F. M. An account of the British settlement at Aden, p. 162. (٢٠)

(٢١) بامخرمة ، ابو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٩٤٧ - ١٥٤) : قلادة النهر في وفيات اعيان الدهر ، مخطوطة السنة الثامنة بعد التسعمائة ، لوحة ١١٩.

(٢٢) بامخرمة : نفس المصدر ، لوحة ١١٩ .

Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, p. 28. (٢٣)

(٢٤) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٤، من ١٩١ .
Kammerer, A. : Op. Cit., Tome 2., p. 144. (٢٥)

أغراضهم في خلال فترة لا تتجاوز عشر سنوات تمتد بين عامي ١٤٩٩ و ١٥٠٩ من مجرد الرغبة في كشف الطريق البحري إلى الهند لتحقيق بعض المكاسب الاقتصادية^(٢٦) ، إلى الرغبة في احتكار التجارة الشرقية والسيطرة عليها وعلى مصادرها الأصلية ، بل وإلى إقامة أول حكومة استعمارية أوروبية في بلاد الشرق . ولاشك أن تفوق البرتغاليين الحربيين كان عاملاً أساسياً في تطور موقفهم السريع أثناء تلك الفترة بحيث كانوا يمتلكون سفنًا حربية مزودة بالمدافع ، وهي أسلحة لم تكن معروفة في الهند في ذلك الحين^(٢٧) . وقد ترك نشاط البرتغاليين في تلك الفترة في تثبيت اقدامهم على سواحل المحيط الهندي ، وفي مهاجمة السفن والموانئ التجارية العربية والإسلامية في مياه الخليج العربي والبحر الأحمر وبحر العرب والمحيط الهندي بوجه عام^(٢٨) وكان استيلاء البرتغاليين على جزيرة سقطرى في سنة ١٥٠٦م ، الواقعة في مواجهة القرن الإفريقي وتشرف على مدخل خليج عدن المؤدي إلى البحر الأحمر ، عاملاً حاسماً في تحكم البرتغاليين في الطريق البحري المباشر بين مصر والهند . وقد أعقب ذلك استيلاء البرتغاليين على ملقا في سنة ١٥١١ في أقصى شبه جزيرة الملايو في الطرف الجنوبي الشرقي

(٢٦) عيسى بن لطف الله : « روح الروح فيما حدث في المائة التاسعة من الفتن والفتح » ، مخطوطة من ٩ .

(٢٧) السيد مصطفى سالم (دكتور) : *الفتح العثماني الأول لليمن* ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، من ٥٠ - ٥١ .

(٢٨) محمد عبد العال أحمد (دكتور) : *البحر الأحمر والمحاولات البرتغالية الأولى للسيطرة عليه* ، نصوص جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمني «بامخرمة» كما سجلها في مخطوط (قلادة النهر) دراسة وتحقيق ، ص ١٠٠ .

من آسيا ، والتي كانت تعد من أعظم قواعد التجارة العالمية ، حيث تجتمع منتجات منطقة الشرق الاقصى والهند الصينية بصفة خاصة . كذلك أدى استيلاء البرتغاليين على هرمز الى اغلاق الخليج العربي ^(٢٩) والى سيطرتهم على مصايد المؤلئ في الخليج ، وعلى تجارة الخبول الفارسية والعربية التي كانت ترسل من هرمز الى بلاد الهند .

وبعد أن تمكن البرتغاليين من الوصول الى قاليقوط في سنة ١٤٩٨م ، أخذت التجارة الشرقية التي كانت تصل من المحيط الهندي — الذي كان أشبه بواء العسل بما فيه من خيرات — تتحول الى طريق رأس الرجاء الصالح ، بحيث لم تعد مصر المركز الرئيسي الذي تجتمع فيه السلع الشرقية ، فيشتريها البنادقة وغيرهم . ولما أصبح البرتغاليون يتحكمون في منابع هذه السلع من أرجاء المحيط الهندي بعد حركة الكشوف فلم تعد هناك حاجة الى وساطة مصر او البنادقية ، تلك الوساطة التي أدت الى ارتفاع ثمنانها في الاسواق الاوربية . اذ كان ثمن قنطار الفلفل على سبيل المثال يتراوح بين $\frac{1}{2}$ و ٣ بندقيا في قاليقوط ، ويصبح ثمنه بعد وصوله الى الاسكندرية ٨ بندقيا ، على حين صار يباع في لشبونة البرتغالية بعد الكشف الجغرافي بسعر يتراوح بين ٢٠ و ٤٠ بندقيا ، اي أن أسعار السلع انخفضت بواقع نصف قيمتها على أكثر تقدير . كما أن السفن البرتغالية وفرت على المستهلك الاوربي مشقة الحصول على السلع الشرقية حتى من لشبونة التي أصبحت مركزاً لتجميع هذه السلع وتسييقها ، اذ صارت السفن البرتغالية تنقل السلع الشرقية مباشرة الى مناطق الاستهلاك مثل انجلترا

(٢٩) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية

مفترى عليها ج ١ ، ص ٦٩٨ - ٦٩٩ .

والاراضى المنخفضة وغيرها من الدول الاوروبية ^(٣٠) .

وهكذا تمكّن البرتغاليون من تحويل التجارة العالمية الى طريق رأس
الرجاء الصالح عقب وصولهم الى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وبذلك حرمت
مصر وعالم البحر المتوسط من تيارها المتدفق في مطلع القرن السادس عشر
الميلادى .

(٣٠) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٣ .

الفصل الثالث

أثر تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر

أدى تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر بليادين إلى احداث تغير واضح المعالم في الواقع الاقتصادي والسياسي والاستراتيجي الذي عاشته مصر وعالم البحر المتوسط في مطلع العصور الحديثة ، وخاصة أثناء القرن السادس عشر أو بالاحرى حتى نهاية الفترة التي ظهرت فيها انعكاسات هذا الحدث التاريخي الهام وردود الفعل المختلفة ازاءه ، والنتائج التي ترتبت عليه ، واستمرت مع تغير تدريجي ، وتطور بطئ حتى عودة التجارة العالمية إلى هذا الطريق التقليدي القديم بعد مصر وعالم البحر المتوسط بشكل واضح في نهاية القرن الثامن عشر .

وسوف نعالج فيما يلى الاثر الذي أحدثه هذا التحول للتجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط في المجالات الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية حتى يمكننا التعرف على حقيقة أبعاده ، أثناء القرن السادس عشر .

(أولا) الاثر الاقتصادي لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

مما لا شك فيه أن العامل الاقتصادي يشكل احدى الدعامات الكبرى التي تستند إليها أي دولة في قيامها وبقائها ، وأنه اذا تطرق الضعف الى هذه الدعامة فان ذلك يعد ذريعاً بتداعى الدولة وانهيارها . ودولة سلاطين

المماليك في مصر والشام والهجاز كانت تتمتع أيام عنفو انها وقوتها باقتصاد متين ، استند الى هذا الحجم الهائل من التجارة العالمية النشطة التي كانت تمر عبر بلادها من جهة ، والى تتمتعها بحالة من الامن والاستقرار النسبي من جهة أخرى ، هذا فضلا عن امتلاكها لقوة ضاربة يحترمها الاصدقاء ويخافها الاعداء ، ونظام مماليكي كان في عهد قوته يعترف فيه الملوك بفضل أستاذه ، ويحترم فيه الصغير من هو اكبر منه سنا ودرجة . وهكذا حققت دولة سلاطين المماليك توازنا يدعو الى الاعجاب في سياستها الداخلية والخارجية جعلتها موضع احترام سكانها في الداخل وغير انها في الخارج وذلك خلال القرنين الاوليين من بداية عهدها وقبل نصف قرن من انهيارها

عام ١٥١٧ .

غير أن السلطنة المملوكية تعرضت في نصف القرن الاخير من حياتها منذ عهد السلطان قايتباى في سنة (١٤٦٧ / ١٤٧٢ م) لكثير من مظاهر التدهور الاقتصادي نتيجة لعوامل متعددة ، وكان تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح بعد وصول البرتغاليين الى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وما ترتب عليه من اضعاف للنشاط التجارى وللقواعد المالية للمماليك من جهة ، وما صاحب ذلك من مجهد حربى لمواجهة الخطر البرتغالى في وقت انهيار فيه نظام الاقطاع الحربى الذى استند اليه كيان الدولة منذ بداية عهدها من جهة أخرى ، وجاء ذلك من ناحية الترتيب الزمنى في نهاية تلك العوامل ، فقد كان هذا العامل الاخير أشبه بالقشة التي قصمت ظهر البعير . ولكن نتعرف على الابعاد الحقيقية لهذا الحدث التاريخي المتمثل في اثر تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر ، فإنه ينبغي علينا أن نتعرف على عوامل التدهور التي ظهرت في كيان الدولة المملوكية في نصف القرن

الأخير من حيلتها لما لها من أثر كبير على اعطاء هذا الحدث التاريخي حجمه الحقيقي وبعده التأثيرى ، وخاصة بعد أن ارتكز إليه متقدرا الكثيرون من الباحثين متأثرين بآئنه كان آخر الأحداث البارزة التي كان لها تأثيرا سلبيا في حياة الدولة المملوكية في نهاية عهدها .

ومن العوامل التي اشتهرت مع هذا العامل الأخير في أحداث التدهور الاقتصادي للدولة المملوكية في نهاية عهدها وخاصة منذ عهد السلطان قايتباى الذى بدأ عام (١٤٦٧ / ٥٨٧٢م) ظهور عبى المماليك الجلبان (١) مع أهالى البلاد الاميين بشكل ملحوظ ، ونهب أموالهم وممتلكاتهم ، والتمرد بين حين وآخر على السلطان بدعوى عدم الرضا بما يخصمه لهم من نفقة وأموال ومطالبتهم بالزيادة . ولم تسلم فئة من فئات المجتمع من أذى المماليك وفسادهم حتى «أنهم رجموا الامراء من الطباقي بالحجارة وكبووا عليهم الماء المتجمس بالاقذار وخطفوا عمامهم الفقهاء» كما يروى ابن اياس في حوادث عام (١٤٩٨ / ٥٩٠م) (٢) بل أن المماليك الجلبان لم يستطيعوا أن يكفووا أيديهم عن أذى الناس حتى في أوقات الخطر والشدة . وقد روى ابن اياس في حوادث عام (١٥١٥ / ٥٩٢١م) أنه عندما نودى في العسكر للتجريدة وللخروج لواجهة العثمانيين أن المماليك الجلبان «نزلوا من القلعة وأطلقوا في الناس النار ، وأخذوا بغال القضاة والعلماء والتجار ، وهجموا عليهم الحارات والبيوت ، ونزلوا الفقهاء من على بغالهم في وسط الأسواق ، وأخذوهم من تحتهم» (٣) وكان من الطبيعي أن يترك

(١) المماليك الجلبان هم المماليك الذين جلبهم السلطان لنفسه عن طريق الشراء من خارج مصر ، وكان المسلمين يقريوهם اليهم على حساب المماليك الآخرين مما سبب الفساد بينهم وبين غيرهم من المماليك .

(٢) ابن اياس ، المصدر السابق ، ج ٤، ص ٤٠٠ .

(٣) ابن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ .

ذلك أثره في الحالة الاقتصادية إذ لم تثبت أن أغلقت الطواحين قاطبة ، وامتنع الخبز من الأسواق وكذلك الدقيق ، ووقع القحط بين الفاس ، وضج العوام ، وكثُر الدعاء على السلطان ، وعلقت أسواق القماش من المالك ، واختفى الصناعية والخياطون ، وانظررت أحوال القاهرة ، واختفى جماعة من التجار خوفاً من المالك » . ^(٤) . وتتجدر الاشارة إلى أن عبى المالك كان معظمهم من المالك الجبان ، الذين دأب سلاطين المالك مع افتقار دولتهم على شرائهم كباراً وقد تجاوزوا سن البلوغ لأنهم في هذه الحالة كانوا أرخص ثمناً من المالك الصغار الذين ينشأون في قصورهم وهؤلاء المالك الكبار كان يصعب تعليمهم آداب السلوك وتغيير أسلوبهم الذي اعتادوه في صغرهم مما جعلهم أداة هدم ومعول تخريب في الدولة . وتکاد لاتمر سنة واحدة من الخمسين سنة الأخيرة من عمر دولة سلاطين المالك دون أن يشير ابن ایاس إلى فتنة أو ثورة أو اضطراب أحد هذه المالك الجبان في الدولة وترتب عليه انهياراً في اقتصادياتها من جهة أو أخرى ^(٥) .

كذلك لم يلتزم سلاطين المالك نوعاً من الاقتصاد في نفقاتهم الخاصة ليخففوا على رعاياهم الأعباء الشقال الملقاه على عاتقهم ، وإنما استمر المالك — سلطاناً وأمراء وجندًا — يعيشون عيشة البذخ والاسراف في الوقت الذي يئن الناس من كثرة الالتزامات المفروضة عليهم . فالسلطان قاليبياً الذي أعلن سنة (١٤٨٨ / ١٩٩٤ م) أمام القضاة والأمراء أن جميع ما في خزائن الدولة من أموال قد نفذ ، اذ به في العام التالي

(٤) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المالك (٨٧٢ - ١٤٦٨ هـ ٩٢٣ - ١٤١٧ م) في ضوء كتابات ابن ایاس . ص ٧٠ .

(١٤٩٥هـ / ١٤٨٩م) يقيم حفلة لمناسبة ختان ابنه محمد الذي تسلط بعده وكان في السابعة من عمره . ويتكلّم ابن ابياس عن هذا الحفل فيقول مانصه « وكان المهم بالقلعة سبعة أيام متتالية ، وكان من نوادر المهمات ، فاجتمع سائر مغناطي البلد ، ورسم السلطان بأن تزيّن القاهرة ، فزيّنت زينة حافلة حتى زينوا داخل الأسواق ٠٠٠ فكانت تلك الأيام مشهودة لم يسمع بمثلها ، ودخل على السلطان من التقاضي ما لا ينحصر من مال وخيوط وقماش وسكر وأغذام وأبقار وغير ذلك ، مما يزيد عن خمسين ألف دينار . فكان من جملة ما أهدى المقر الشهابي أحمد بن العيني طست وأبريق ذهب زنته نحو ستمائة مثقال برسم الختان ٠٠٠ »^(١) . واستمرت مظاهر الأسفاف والتبذير حتى عهد السلطان الغوري الذي يقول عنه ابن ابياس في حوادث سنة (١٥١٦هـ - ١٤٩٢م) أن خاصكيته تكاملت في تلك السنة « نحو ألف ومائتي خاصكي من مشترواته »^(٢) . هذا كله فضلاً عن المنشآت الضخمة التي ظلّ السلاطين يقيموها حتى أواخر عهد دولتهم . ونذكر على سبيل المثال لا العصر ما عده ابن ابياس في حوادث سنة (١٤٩٥هـ - ١٤٩٠م) من منشآت أقامها الائسرف قايتباي أيام دولته : فأقام خلال حكمه من المباني الفاخرة أربع منشآت في المجاز ، ومدرستين بالشام ، ومدرسة بالاسكندرية ، والقلعة التي أنشأها مكان المنار القديم بالاسكندرية ، ومدرسة بغزه ، وجواجم بمصر والقاهرة ، فضلاً عن المدارس والسبيل والمكاتب والزوايا والاسبيل والقنطر والربوع ، كما أنشأ وجدد بالقلعة عدة منشآت^(٣) .

(١) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧١ .

(٢) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٦ .

(٣) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ٣٢٩ .

ومن العوامل التي زادت من سوء الاحوال الاقتصادية في نهاية عهد السلطنة المملوكية أمور طبيعية لم ترحم البلاد . اذ يروى ابن اياس كيف انتشر وباء الطاعون في مصر عدة مرات في السنوات التالية (١٤٧٣ - ١٤٩٨ م) - (١٤٨٣ - ١٤٩١ م) - (١٤٨٨ - ١٤٩٧ م) - (١٤٩٧ - ١٤٩٦ م) - (١٤٩٦ - ١٤٩٥ م) - (١٤٩٥ - ١٤٩٤ م) . ومن هذا يبدو أن الناس ماكادوا يفيقون من موجة من موجات الطاعون حتى يتعرضون لوجة كاسحة جديدة . (٩) . ويذكر ابن اياس عن الطاعون الذي انتشر سنة (١٤٩١ - ١٤٩٧ م) بأنه كان الطاعون الثالث الذي وقع في دولة الاشرف قايتباي ، وأنه « فتك في الناس فتكا ذريعا » حتى لقد بلغ عدد من مات به وأبلغ اسمه فعلا لديوان المواريث نحو من مائتي ألف انسان . ويعمل ابن اياس في حوادث هذا العام ، هذه المطواعين بالفساد الذي عم البلاد ، وأنها جاءت نعمة من الله بعد أن « كثر بها الزنا واللواظ وشرب الخمر وأكل الربا وجور الماليلك في حق الناس » . (١٠)

ومن العوامل الطبيعية التي أثرت في الاوضاع الاقتصادية في نهاية عهد السلطنة المملوكية ظاهرة انخفاض النيل (١١) وتعرض الحاصلات لبعض الاقات مما كان يعود على الحياة الاقتصادية بأفصح العواقب . وقد أوضح ابن اياس في حوادث سنة (١٤٨٦ - ١٤٩١ م) أن فيها « تتساهي سعر البرسيم كل فدان مضرر باثنى عشر دينارا ، وأربعين دريس كل مائة قتة بأربعين درهم ٠٠٠ وسبب ذلك أن حب البرسيم كان غاليا في تلك

(٩) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طوما باي ، ص ٩٠-٨٩ .

(١٠) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٢٨٧ .

(١١) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باي ، ص ٨٩-٨٨ .

السنة ، وكان النيل خسيساً . والذى طلع من البرسيم أكلت غالبية الدودة . وكان سعر الغلال جميعه مرتفعاً في هذه السنة ، حتى غلا سعر الرواية الماء من عدم العلف لجمال المستقابين »^(١٢) .

وفي الوقت الذى تعرض فيه الفلاح في مصر لهذه الازمات الاقتصادية التي جاءت لفعل الطبيعة ، مابين وباء ونقص في ماء النيل ، وآفات تلتهم المحاصيل . . . اذ به لا يسلم من خطر العربان الذين دأبوا على افساد البلاد والاعتداء على الفلاحين ونهب مواشיהם ومحاصيلهم مما جعل الريف يتعرض لازمات تخريبية زادت الاحوال الاقتصادية في البلاد سواء على سوء . وقد أفلح ابن ايس في وصف عبث العربان بألرجة مصر وتعديهم على العباد وذلك في ذكره لاحداث السنوات التالية (١٤٦٨ - ١٤٧٣) — (١٤٩٨ - ١٤٩٤) — (١٤٧١ - ١٤٧٦) — (١٤٨٦ - ١٤٩١) — (١٤٩٨ - ١٤٩٠) — (١٥١٢ - ١٥١٨) — (١٥١٤ - ١٥٢٠) — (١٥١٦ - ١٥٢٢) ^(١٣) ولم تقف سلطنة الماليك مكتوفة اليدى أمام عدوان العربان ، وانما خرجت الجيوش إلى الصعيد والبحيرة والشرقية والجيزة للضرب على أيديهم . وبؤكد ابن ايس كيف ترايد فساد العربان في سنة (١٥١٨ - ١٥١٢) حتى « تحالفت سبع طوائف من العربان (بالبحيرة) أن يكونوا كلمة واحدة على المعصيان . . . وقد آلل أمر تلك الجهات إلى الخراب »^(١٤) . كذلك يروى ابن ايس أن خطر العربان اشتد في تلك السنة نفسها في الصعيد واستمر حتى عام (١٥١٦ - ١٥٢٢) الذي تهبه فيه بنوا عطية

(١٢) ابن ايس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٤٤ .

(١٣) ابن ايس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٤ .

(١٤) ابن يلس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٢٥٦ .

والتعاليم « ضياع الشرقية ، وأخذوا منها نحوا من أربعين رأس من الغنم ودخلوا وادى العيادة ». (١٥)

هناك كذلك عوامل خارجية أثرت في اقتصاديات الدولة المملوکية في نهاية عهدها ، وهي تتمثل في طمع الاعداء في أراضي الدولة ومحاولتهم غزوها بعد أن اتضحت لهم أنها في ذلك الدور الاخير من عمرها أضعف من أن تستطيع الدفاع عن كيانها . ويشير ابن ایاس في حوادث سنة (٩٨٧٢ — ١٤٦٧م) إلى ما كان بين سلطنة المماليك وشاه سوار من أمراء التركمان على الحدود الشمالية للدولة — من حروب (١٦) . كما يشير في حوادث سنة (٩٨٨٨ — ١٤٨٣م) إلى أن على بن دولات بن دلغادر هاجم ملطيه في جميع كبار من العساكر « فانزعج السلطان لهذا الخبر » (١٧) . أما هجمات العثمانيين فيشير إليها ابن ایاس في حوادث سنة (٩٨٩٠ — ١٤٨٥م) و (٩٨٩١ — ١٤٨٦م) و (٩٨٩٣ — ١٤٨٧م) (١٨) وغيرها . هذا بالإضافة إلى بعض الهجمات التي تعرضت لها سلطنة المماليك في هذا الدور ، وجاءت من ناحية البحر المتوسط ، إذ دأب الفرنج وقراصنتهم على هاجمة شواطئ الدولة وموانيها وقطع الطريق على سفنها التجارية في عرض البحر . من ذلك ما يشير إليه ابن ایاس في سنة (٩٨٧٨ — ١٤٧٣م) من أنه « جاءت الاخبار من الاسكندرية بأن الفرنج قد تعيشوا ببعض سواحلها وأسروا من المسلمين تسعة أئثار ، وفعلوا مثل ذلك بشفر

(١٥) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٧٩ .

(١٦) ابن ایاس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٤٥٠ .

(١٧) ابن ایاس : نفس المصدر ، ج ٣ ، ص ١٩٩ .

(١٨) ابن ایاس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢١٤ . ٢٣٧٤٢٢٤٢١٤ .

ديمياط »^(١٩) . وذكر ابن اياس احداثاً مشابهة تشير الى عدوان الفرنج في البحر المتوسط على موانئ دولة المماليك ومسفنها في حوادث سنة (٥٩١٣ - ٥٩١٤ م) و (٥٩١٥ - ٥٩١٦ م) و (٥٩١٧ - ٥٩١٨ م) ^(٢٠) .

ومن الواضح أن خطورة هذه الهجمات العادمة على أطراف السلطنة المملوكية وسواحلها في نهاية القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين لاتقف من الناحية الاقتصادية عند حد ما كانت تحدده من خراب وتدمير ، وإنما كانت تتطلب للحد من خطرها ومقاومتها نفقات باهظة تلقى على خزانة الدولة مزيداً من الاعباء ، في وقت اشتد طمع الجندي وازدادت شرائحهم المالي ، وصاروا لا يتحركون ولا يخرجون في تجريدة الا بعد أن يتناصفوا الشمن أضعافاً مضاعفة . وكانت هذه الحروب الدفاعية هي في نفس الوقت حرباً استنزافية تلقى أعباء جديدة تقبلاً على خزانة الدولة وبالتالي فإنها زادت الأوضاع الاقتصادية سواءً فوق سوء .

واذ كانت كل هذه العوامل قد أثرت في اضعاف اقتصاديات السلطنة المملوكية في نهاية عهدها ، فإنه لا يخفى علينا أن العامل الأساسي في تدهور الحياة الاقتصادية في أواخر عصر سلطنة المماليك ، إنما يكمن في كسر تجارتها . ذلك أنه من المعروف أن دولة المماليك بنت قوتها واستمدت ثروتها من قيامها بدور الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، وفي عصر اندست فيه معظم طرق التجارة الداخلية بسبب ظهور التقارب على مسرح الشرق الأوسط ، بحيث لم يبق خارج سيطرتهم الا طريق البحر الاحمر — عبر أراضي دولة المماليك الى البحر المتوسط . ولكن اكتشاف البرتغاليين لطريق

(١٩) ابن اياس : المصدر السابق ، ج ٣ من ٨٩ .

(٢٠) بن اياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، من ١١١، ١٢٠، ١٣٠ .

رأس الرجاء الصالح ووصلهم إلى الهند في سنة ١٤٩٨ حرم ملطنة الملاليك من المورد الأول لثروتها وقتها ، إلى جانب ما كانت تتعانى منه آنذاك من تدهور اقتصادى على النحو الذى أشرنا إليه مما أنزل ضربة قاسمة بوضعها الاقتصادي وكان هذا الحدث التاريخي الخطير أشبه بالقبضة التي قصمت ظهر البعير .

وقد حاول السلطان الغوري مواجهة الخطر البرتغالي وأرسل حملته الأولى التي هزمت في موقعة ديو عام ١٥٠٩ . وكان عليه أن يواصل جهوده بعد أن علم — كما يروى ابن ايس في حوادث عام (١٥١٣ - ١٤٩٩) أن «الفرنج» قد زاد تشويشهم على التجار في البحر الملح (البحر الأحمر) وصاروا يخطفون البضائع من المراكب ، وقد ملكوا قمran وهي من بعض جهات الهند (والصحيح أنها جزيرة قمran المواجهة للساحل اليمنى المطل على البحر الأحمر شمالي الحديدة) ، وقد تكامل من مراكب الفرنج بالبحر نحو عشرين مركبا ، وكثرت الأشاعات بسفر السلطان إلى السويس^(٢١) . لكن يعتقد بنفسه بناء أسطوله في البحر الأحمر لمواجهة البرتغاليين الذين حاصروا آنذاك «مدينة سواكن وأن الشريف برकات أمير مكة خرج إلى جده .. خوفا على البند من الفرنج أن يهجموا عليه»^(٢٢) .

ويصور ابن ايس ما أصاب اقتصاد الدولة المملوكية آنذاك من خراب نتيجة لكساد تجاراتها في عبارة ذكرها في حوادث سنة (١٥١٤ - ١٤٩٦) فيقول : «وكان في تلك الأيام ديوان المفرد وديوان الدولة وديوان الخاص في غاية الانحسارات والمعطيل ، فان بند الاستكدرية خراب ولم تدخل إليه

(٢١) ابن ايس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٩ .

(٢٢) ابن ايس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٣١ .

القطاع (السفن) في السنة الخالية . وبندر جده خراب بسبب تعبث
للفرنج على التجار في بحر الهند ، فلم تدخل المراكب بالبصائع إلى بندر
جده نحو من ست سنين ، وكذلك جهة دمياط » (٢٣) .

وأمام هذا التدهور الاقتصادي الذي منيت به الدولة المملوكية
طوال الخمسين سنة الأخيرة من عمرها نتيجة للمعوامل التي أشرنا إليها
والتي انتهت بتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح
وانحسارها عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ وصول البرتغاليين إلى
الهند عام ١٤٩٨ ، فقد حاول سلاطين المماليك في تلك الفترة أن يعالجو
ذلك التدهور . وقد لجأوا إلى أساليب عديدة لتعويض خزانة الدولة بما
فقدته ، ولتمكنهم من النهوض بالاعباء الملقاة على عاتق حكومتهم ، فضلاً
عن اشباع المطالب الخاصة بالسلاطين أنفسهم . وإذا كانت هذه الأساليب
قد نجحت في توفير بعض الأموال المطلوبة للسلاطين ، إلا أنها من الناحية
الاقتصادية زادت الطين بلة ، وأسرعت بالخراب الذي حل بالدولة وجرفتها
ما عجل ب نهايتها (٢٤) .

من ذلك ما لجأ إليه سلاطين المماليك من تطبيق سياسة الاحتكار التي
توسعوا فيها منذ عهد السلطان بربسي الذي أصدر مرسوماً في عام ١٤٣٨
يحرم به شراء التوابيل من غير مخازن السلطان . وقامت هذه السياسة
على أساس احتكار السلاطين أصنافاً معينة من البصائع لا يجوز لاي قرد آخر
أن يتاجر فيها ، مما ضمن للسلاطين ايراداً ضخماً وخاصة من وراء بعض
حاصلات الشرق التي احتكر سلاطين المماليك بيعها للتجار الأوروبيين .

(٢٣) ابن ایاسن : نفس المصدر ، ٣٥٩ .

(٢٤) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة
سلاطين المماليك ، ص ٧٨ .

وأما المتجر السلطاني فالمقصود به أن السلطان كان يستغل أمواله بتشغيلها في التجارة طلباً للكسب ، وبذلك ينافس أرباب الاعمال والتجار في أرزاقهم . ويروى ابن ابياس عن السلطان الغوري في حوادث سنة (٩١٩ - ١٥١٣م) أنه كان « يشتري القمح ويرسله إلى الشام فاته كان بها غلاء عظيم ، حتى قيل وحل فيها كل أردب قمح إلى سبعة أشرفية ، فسكن يشتري القمح من مصر ويرسله إلى البلاد الشامية ، فاشتهرت القاهرة من الخير والدقيق بسبب ذلك ، وكادت أن تكون غلوة مع وجود القمح الجديد » (٢٥) وهكذا استغل السلطان الغوري الفارق في سعر القمح بين مصر والشام ليشتري كميات كبيرة من القمح لحسابه الخاص ويرسلها إلى الشام ليحصل على فرق الثمن ، غير مبال بما يعانيه شعبه في مصر والشام جميماً من جراء هذا الاستغلال .

كما تحايل سلاطين المماليك من أجل الحصول على المال عن طريق مصادرة أموال الناس وأملاكهم . فكان يكتفى أن تظهر على أحد رجال الدولة دلائل النعمة حتى يسكون هدفاً سهلاً للسلطان يقرر عليه المبالغ الضخمة ليدفعها ، والا فبئس المصير . وكانت أعمال المصادرات تشتند عساها كلما امتد الوقت بدولة المماليك وازداد عبءها المالي ، حتى إذا ما جاء عصر الغوري – الذي تحولت في عهده التجارة الشرقية إلى طريق رأس البر وجاء الصالح – كانت سياسة المصادرات قد بلغت أشدتها . ويروى ابن ابياس في حوادث سنة (٩٠٧ - ١٥٠١م) أن المماليك عندما طلبوا النفقة من السلطان الغوري « ظل يضيّرهم نحوأ من أربعة أشهر حتى جمعت الأموال من المصادرات » (٢٦) . ثم يقول ابن ابياس في حوادث سنة ٩١٥

(٢٥) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٠٢ .

(٢٦) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٩٠ .

أنه « صودر في هذه السنة جماعة كثيرة من أعيان الناس » (٢٧) . ولم تقتصر هذه المصادرات على الأموال السائلة والعقارات وإنما امتدت إلى غيرها ، حسب حاجة السلطان . وعندما اشتدت حاجة السلطان إلى الأخشاب لبناء السفن في السويس لمنازلة البرتغاليين في سنة (٩١٩ - ١٥١٣ م) ، قاتل رجاله « صاروا يقطعون أشجار الناس من الغيطان غصباً باليد ، ويرسلونه إلى السويس لأجل عمارة المراكب هناك » (٢٨) .

وشيء آخر من المصادرات لجأ إليه سلاطين المماليك في ذلك الدور لتجهيز المال اللازم لهم ، وتمثل ذلك في قطع أرزاق الناس – وخاصة الفقهاء والمعتمدين وحرمانهم من مرتباتهم العينية أو انقاذهما ، حتى انتهى الأمر بأن امتدت أيدي السلاطين إلى الأوقاف الشرعية لحرمان مستحقاتها من نصيبيهم وقد اعترض على ذلك التصرف آنذاك قاضي قضاة الحنفية ، على أن تلك المعارضة لم تحل بين سلاطين المماليك وبين تنفيذ أطماعهم في الأوقاف فيروى ابن ابياس في حوادث سنة (٩١٤ - ١٥٠٨ م) كيف أن السلطان الغوري « نعرض للرزرق الأحباسية والأوقاف .. فتحمل للناسضر الشامل ولا سيما أولاد الناس .. وكانت حادثة مهولة لم يسمع بمثلها » . ثم يضيف ابن ابياس – في حسرة وألم قائلاً « وأنا من جملة من وقع له ذلك » (٢٩) أي أنه كان من جملة من صودرت اقطاعاتهم . وما زال ابن ابياس يقف للسلطان الغوري ليشكوه حاله ، حتى رق له وأمر بإعادة اقطاعيه إليه في العام التالي (سنة ٩١٥ - ١٥٠٩ م) (٣٠) .

(٢٧) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ١٥٢ .

(٢٨) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ٣٠٧ .

(٢٩) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٥٠ .

(٣٠) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٤ ، ص ١٧٣ .

وشمة وسينة أخرى لجأ إليها سلاطين المماليك للحصول على المال وهي التلاعب بالعملة والتي كان من شأنها حدوث مزيد من التدهور الاقتصادي للسلطنة . ويدرك ابن ابياس في حوادث سنة (١٤٧٤ - ٨٧٩هـ) أن السلطان قايتباى ضرب فلوساً جدداً وأراد أن يجعل سعرها أعلى من الفلوس العتق ليجني السلطان الفرق بين السعرين . وكانت الفلوس تقييم بالوزن لا بالعد، فجعل السلطان كل رطل من الفلوس الجديد بستون نيلين ، في حين كان كل رطل من الفلوس العتق بأربعة وعشرين « فخسر الناس في هذه الحركة الثالث من أموالها » (١) . ولاشك في أن التلاعب بالعملة على هذا النحو من شأنه أن يخلق حالة من عدم الاستقرار بالسوق ، الامر الذي يزيد من ارتباط الأوضاع الاقتصادية بالدولة . كما فرض سلاطين المماليك مكوساً وضرائب لأشباع رغبتهم في الحصول على الأموال ، فالسلطان قايتباى عندما احتاج إلى أموال لا خراج تجريدة شد العثمانيين في سنة (٨٩٢هـ - ١٤٨٦م) أمر المحاسب بجمع أعيان التجار وفرض عليهم أربعين ألف دينار قائلًا لهم « ساعدوني بشيء من المال على خروج التجريدة » (٢) . ولكن التجار ضجوا من ذلك ، ومازالت المفاوضات جارية بين الطرفين حتى قبل التجار أن يدفعوا أثنتي عشر ألف دينار . وبالإضافة إلى الضرائب المباشرة ، والتي كان يفرضها السلطان على التجار على شكل اتاوات ، لجأ سلاطين المماليك إلى فرض بضائع معينة على التجار ، يشترونها من السلطان بالائمان التي يحددها هو ، ويخرسون فيها أموالاً طائلة ، مما أدى إلى زعزعة الحالة الاقتصادية في الأسواق . ويدرك ابن ابياس في حوادث سنة (١٥١١ - ٩١٧هـ) أن السلطان الغوري « أرمى على التجار قاطبة

(١) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٠٦ .

(٢) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٢ ، ص ٢٤٢ .

شاشات وأرزا وأنوابا صوفا ، وأرمى على السوق زيتا وعسلًا وزبيدا
وأصناف بضائع يخسرون فيها الثمن ، وصاروا يستحقونهم في سرعة
الثعن لاجل النفقة ، فغلقت الأسواق بسبب ذلك وأقامت مفاولة
أياماً » (٣٣) .

ولم يكن أهل الريف — من المقطعين وغيرهم بمنجاة من ظلم المسلطين
عندما زادت الأزمة الاقتصادية ، وإنما امتدت يد العسف إليهم ، ففي الوقت
الذى كان رجال السلطان يضيقون على التجار في العاصمة لسلب أموالهم ،
كان الكشاف في الأقاليم ينفذون تعليمات السلطان بجمع الأموال من المقطعين
كماءلًا للسلطان إلى جمع خراج الأرض من المزارعين قبل استحقاقه وقبل
جمع المحصول الجديد ، بل حتى قبل موسم فيضان النيل ، مما عرض
لكثير من المظالم . ومن ذلك ما أورده ابن ايس في حوادث سنة (٩١٨ -
١٥١٢م) من أن السلطان الغوري رسم «لકاشف الشرقيه وكاشف الغربيه» بأن
ينزلا على البلاد ويستخرجوا من الفلاحين الحصليات والشيلفة وقدوم
الكتاف عن سنة ثمان عشرة وتسعمائة الخراجية قبل أن تدخل . وقبل أن
تنزل النقطة وينادي على النيل ، فحصل للمقطعين غالبية الضرر ، وصارت
الكتاف تنزل على البلاد وتتكبس على الفلاحين ، ويستخرجون منهم الأموال
بالضرب ، والذى يهرب يقبضون على نسائهم وعلى أولادهم ، فخرب
غالب البلاد ، ورحلت عنها الفلاحون » (٣٤) . وتوضح الفقرة الأخيرة
من عبارة ابن ايس مدى التدهور الاقتصادي الذى حل بريف مصر آنذاك
لحرصر المالك على جمع الأموال بكلفة الطرق بعد أن فقدوا عوائد التجارة

(٣٣) ابن ايس : المصوّر السليم ، ج ٤ ، ص ٢٤٢ .

(٣٤) ابن ايس : نفس المصوّر ، ج ٤ ، ص ٢٦٢ .

عقب تجولها الى طريق رأس الرجاء الصالح منذ نهاية القرن الخامس عشر
وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين .

ولم يكن صعيد مصر أحسن حالا من الوجه البحري اذ كان رجال
السلطان الغوري يعتصمون الكثير من الخيول ونحوها في أوقات الحاجة ،
فكانوا ينزلون على كل بلد ويفرضون عليه فرسين قيمتها مائة دينار ،
هذاً كانت البلدة كبيرة فرضوا عليها أربعة . ويروى ابن ابياس في حوادث
(سنة ٩٢٢ - ١٥١٦) أن الفلاحين ضجوا من ذلك « واخلوا من البلاد ،
وتراكوا زروعهم في الأرض ورحلوا ، وحرب بعض البلد في هذه
الحركة » ^(٢٥) وهكذا أدت هذه السياسة التي استخدمها الغوري
إلى خراب الزرع والضرع .

وزاد من ارتباك الأوضاع الاقتصادية في عهد السلطان الغوري ما عرف
باليسم المشاهرة والمجامعة ، وهي ضريبة تجمع من السوق وتدفع للمحتسب
كل شهر ليوردها للخزائن السلطانية . وقد بلغ من قسوة هذه الضريبة
أن زادت شهريا على الالافى دينار . ويقول ابن ابياس في حوادث (سنة
٩٢٢ - ١٥١٦) أن هذه الضريبة كانت « من اكبر اسباب الفساد
في حق المسلمين » ^(٢٦) . نظرا لأن البااعة اضطروا إلى تعويض قيمة هذه
الضريبة عن طريق رفع أثمان البضائع فأشتد الغلاء وعز وجود أصناف
كثيرة من البضائع حتى اضطر السلطان إلى الغائها في السنة المذكورة .

وفي الوقت الذي كان التجار داخل البلاد يتعرضون لهذه المظالم التي
يقع جزء منها بدوره على المستهلك نتيجة للضائق المالية التي اجتاحت البلاد ،

(٢٥) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٣١-٣٢ .

(٢٦) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٣٢ .

فقد يتعرض التجار الإجانب الوافدون على موانئ الدولة في مصر والمجالس
وغيرها لنفس السياسة التعسفية التي طبقها سلاطين المماليك في تلك الفترة
الأخيرة من حياة الدولة المملوكية الامر الذي جعل التجار ينصرفون عن
المتاجره مع الدولة في الوقت الذي ظهرت معالم الطريق الجديد حول افريقيا
إلى الهند . وهكذا ذيلت الاسكندرية ودمياط وجدة وغيرها من ثغور الدولة
وأقفرت أسواقها بعد أن انصرف عنها التجار تجنبًا لدفع الكوسن الباهظة
التي فرضها سلاطين المماليك . ويقول ابن ابياس عن مدينة الاسكندرية
في حوادث (٩٢٠ - ١٥١٤) عندما زارها السلطان الغوري أنها كانت
« في غاية الخراب بسبب ظلم النائب وجور القباض ، فانهم صاروا يأخذون
من التجار العشر عشرة أمثال . فامتنع تجار الفرنج والمغاربة من الدخول
إلى الشغر ، فتلاشى أمر المدينة ، وآل أمرها إلى الخراب ، حتى قيل طلب
الخبز فلم يوجد بها ، ولا الأكل ووجد بعض الدكاكين مفتوحة والبقية
لم تفتح ». ^(٣٧)

وما يقال عن الاسكندرية ينطبق على غيرها من ثغور الدولة . اذ يقول
ابن ابياس في حـوـادـث سـنـة (٩٢٢ - ١٥١٦) مـاـنـصـه « وكان حسين نائب
جده يأخذ العشر من تجار الهند مثل العشرة أمثال ، فامتنعت التجار من
دخول بندر جده وآل أمره إلى الخراب ، وكذلك الاسكندرية ودمياط .
فامتنعت تجار الفرنج من الدخول إلى تلك البنادر من كثرة الظلم ، وعز
وجود الأصناف التي كانت تجلب من بلاد الفرنج ». ^(٣٨)

واضح من كل ما تقدم أن تدهور الاحوال الاقتصادية في أواخر

» . (٣٧) ابن ابياس : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٤٢٤ .

(٣٨) ابن ابياس : نفس المصدر ، ج ٥ ، ص ٨٣ .

عصر دولة المماليك لم يكن نتيجة عامل واحد أو سبب بعينه ، وإنما جاء ولد أسباب وعوامل عدة تضافرت لتغير قواعد تلك الدولة هزا عنيفا ، حتى فقدت أسباب رخائها وثروتها^(٣٩) وكان تحول التجارة للمالية عن مصر وعالم البحر المتوسط عقب وصول البرتغاليين إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ من أبوز عوامل التدهور الاقتصادي وفي نهايتها من ناحية التوقيت الزمني ، مما جعل هذا الحدث التاريخي العام أشبه بالقضية التي قسمت ظهر البيضاء كما سبق أن أشرت . ولا يمكن فهم أبعاد هذا الحدث العام دون التعرف على العوامل الأخرى التي عرضناها والتي أدت إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية في الدولة المملوكية ، حيث تضلعوت جميعها في انهيار الدولة اقتصاديا ، وبالتالي هزيمتها استراتيجيا وسياسيا أمام الدولة العثمانية في سنة (١٥١٧ - ١٩٢٣ م) وهو ما سوف نعالج في المفحالت التالية مع ظهور انعكاسات هذا الحدث التاريخي على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر الميلادي .

(ثانيا) الأثر السياسي والدبلوماسي لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :

شهدت سلطنة المماليك في نهاية عهدها منذ أواخر القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين الكثير من الأضطرابات السياسية الداخلية التي جاءت في نفس الوقت الذي تمكّن فيه البرتغاليون من الدوران حول إفريقيا والموصول إلى الهند في سنة ١٤٩٨ ، وبذاته سيطّرّتهم على

(٣٩) سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : التدهور الاقتصادي في دولة سلطانين المماليك من ٨٨

التجارة الشرقية ، وبالتالي حرمان مصر وعالم البحر المتوسط من أهم الموارد المالية في ذلك الحين . وقد أدى هذا التحول الذي أثر في اقتصاديات الدولة المملوکية بوجه خاص إلى التأثير وبالتالي على الحياة السياسية فيما والقى اقتصاد بالتنافس والصراع لاعتبارات متعددة ، زاد تفاقمها عندما ضاقت الموارد المالية وتدورت اقتصاديات البلاد نتيجة لتحول التجارة العالمية عنها إلى طريق رأس الرجاء الصالحة .

وكدليل على الأضطراب الذي ساد الحياة السياسية في أواخر عهد السلطنة المملوکية ما أوردته الدكتورة محمد محمد أمين في دراسته لوبيات تقويض من عصر العادل طومان باي ، صدرت في (١٢ رجب ٩٠٦ - أول فبراير ١٥٠١ م) من الأشرف جان بلاط ، ويستدل منها على أن طومان باي العادل رفع اثنين من كبار الامراء إلى عرش سلطنة المالك قبل أن يلي هو نفسه العرش . وأن هذه الوبيقة تمثل فترة اضطراب وقلق شديدين في أواخر عصر سلطنة المالك . والوبيقة رغم صغر حجمها فإنها تلقى الضوء على العلاقات التي سادت بين كبار الامراء المتنافسين على العرش ، وهي تدور بين أربعة أشخاص تولى ثلاثة منهم عرش سلطنة المالك ، وتتمثل نسوعا من تقسيم العناائم بين المشتركين في الصراع بعد أن تم توزيع المناصب الكبرى عليهم ، وذلك في الفترة التي أعقبت وفاة السلطان قايتباي ، وحتى تولية السلطان الأشرف قونصوه الغوري . وقد ولى الحكم في هذه الفترة القصيرة ، والتي لم تتجاوز الخمس سنوات خمسة سلاطين تولى أحدهم وهو محمد بن قايتباي السلطنة مرتين ، وانتهى الامر بقتله على يد الامراء المالك ، كما تولى أحدهم وهو قونصوه عرش السلطنة مدة ثلاثة أيام فقط ، ثم خلعه الامراء وهذه الفترة تمتد بين عامي (١٤٩٦ - ٩٠٦ م) و (١٥٠١ - ٩٠٦ م) وكانت هذه الفترة هي بداية النهاية بالنسبة لسلطنة

الماليك ، وبخاصة أن هذه الأضطرابات الداخلية جاءت في نفس الوقت الذي حرمت فيه مصر من التجارة العالمية ، وبالتالي حرمت من أهم مواردها المالية حينذاك (٤٠) .

وتجدر الاشارة كذلك إلى ظاهرة الانقسام في صفوف الماليك التي بدت عند قيام السلطان قانصوه الغوري بمواجهة زحف السلطان سليم الأول العثماني في عام (١٥١٦ - ٩٢٢م) على بلاد الشام ، (٤١) وكان ذلك انعكاساً للاحوال الاقتصادية السيئة التي كان يعاني منها الماليك في نهاية عهد سلطنتهم . فالسلطان الغوري كان يتغوف من نائبه على الشام سبياً ويظن أنه يسعى إلى أن يحل محله ، خاصة وأن نواب الشام كثيراً ما كانوا يثورون ضد سلاطينهم ، وأحياناً يتولون السلطة من دونهم . كما كان الماليك الذين صاحبوا الغوري إلى الشام في نزاع فيما بينهم . فمماليك الجلبان بلغ عددهم في عهد الغوري ثلاثة عشر ألفاً ، وأصبحوا يعادون مماليك السلاطين قبله ، الذين عرّفوا بـ «الماليك السلطانية» أو القرانصة أو القرانصة . وكان أساس النزاع بين الفريقين تقرّيب الغوري لماليكه الجلبان على حساب الماليك الآخرين ، بل أنه كان يتذبذب بينهما أحياناً مما يثير الغيرة والحدق بينهم ، في وقت كانت تعانى فيه البلاد من التدهور الاقتصادي وجود قحط آنذاك (٤٢) . وأثناء المعركة التي دارت

(٤٠) محمد محمد أمين (دكتور) : تقويض من عصر العادل طومان باي «صلون انسلاطين» مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد السابع والعشرون ١٩٨١ ص ٥٦ - ٦١ .

Holt, P.M. : Egypt and the Fertile Crescent 1516-1922, A political History
(٤١) p. 38.

(٤٢) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طومان باي ، ص ١٢٢ .

بين الغوري وسليم الأول في مرج دابق يوم الاحد (١٥١٥ - ٩٢٣ هـ) اغسطس ١٥١٦ سرت اشاعة بأن الغوري يريد أن يتخلص من القرانصة ، حتى أنه طلب من مماليكه من الجلبان لا يقاتلوا ، مما جعل القرانصة الذين كانوا في المقدمة يتوقفون عن القتال ، الامر الذي ترتب عليه الهزيمة الكاملة ، وفار فرار المماليك بجميع فنادقهم . وكان خاير بك أول من هرب من الامراء ، وقبعه جان بردى ^(٤٣) ، ومن المرجح أنهم كانوا متلقين من الباطن مع السلطان سليم الأول ، حيث كان كلّاً هما يرى نفسه أنه أحق بالسلطنة من الغوري . وقد حاول الغوري أن يوقف فرار المماليك — سيما من الجلبان — حيث أصبح في نفر قليل ، وكان ينادي بصوته : « هذا وقت المرأة هذا وقت النجدة » ، الا أن المماليك استمروا يفرون ^(٤٤) ، مما ترتب عليه هزيمة الغوري ومقتله في تلك المعركة . وهذا يوضح مدى التمزق الذي أصاب وحدة الصف المملوكي الذي توأكب مع ظاهرة التدهور الاقتصادي الناتج عن تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط آنذاك .

— الاشر الدبلوماسي :

وإذا انتقلنا الى النشاط الدبلوماسي الذي ظهر في مصر وعالم البحر المتوسط نتيجة لتحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر فاننا سنجد أن البنادقة قد أحسوا بمدى خطورة تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين منذ وصولهم الى الهند في سنة ١٤٩٨ ،

Holt, P. M. : Op Cit., pp. 38, 39.

(٤٣)

(٤٤) عبد المنعم ماجد (دكتور) : طoman باي ، ص ١٢٥ - ١٢٧ .

والذى أدى إلى فقدانهم لمصدر ثروتهم الناتج عن اشتغالهم بالتجارة العالمية آنذاك . لهذا فإن البنادقة أخذوا يرافقون مجموعات البرتغاليين وتحركات سفنهم ، ويحاولون من جانبهم اقتحام سفراء ملوك الهند في لشبونة بعدم مقدرة البرتغاليين على نقل السلع الشرقية بدون مساعدة مالية من البنادقة . وكانت هضبة الدكن في شبه جزيرة الهند مكونة من مملكتين هما مملكة « باهمانى Bahmani » التى أسسها « باهمان شاه » عام ١٣٤٧ ، ومملكة « فيجيانجر Vijayandgar » في جنوبها ، وفي نهاية القرن الخامس عشر انقسمت مملكة « باهمانى » وحدها إلى خمسة أقسام ، وهى المعروفة بملوك الطوائف وهم : بنو عmad شاه ، وبنو نظام شاه ، وبنو بريد شاه ، وبنو عادل شاه ، وبنو قطب شاه ^(٢٥) . وقد أصبح مؤلاً ، الملوك سفراء لدى ملك البرتغال فى لشبونة بعد تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى .

وقد حرص البنادقة على تكوين تحالف مع الملوك لمواجهة النشاط التجارى البرتغالي الذى سيطر على طريق رأس الرجاء الصالح وحوى التجارة العالمية إليه ولهذا جاءت سفارات البنادقة الدبلوماسية المتكررة إلى بلاط السلطان المملوکى قونصوه الغورى ، وأشهرها سفارة « باندونو سانوتو Banedetto Sanuto » إلى الغورى فى سنة ١٥٠٣ م ، وأشار هذا السفير على السلطان الغورى أن يبعث برسله إلى أمراء الهند لحملهم على قطع علاقاتهم بالبرتغاليين ، ووقف موانئهم في وجه السفن البرتغالية . كذلك طلب النسفير من الغورى أن يعمل على تخفيض الضرائب الباهظة التى

تبايع بها التوابل في الاسكندرية حتى يستطيع البندقة مفاسدة خصومهم في الاسواق الاوربية^(٤٦) .

غير أن السلطان الغوري رأى أن يبعث برسالة إلى بعض الدول الاوربية ، لتعمل هذه الدول على وقف حملات البرتغال على الهند ، وهدد باتخاذ اجراءات عنيفة ضد المسيحيين في بلاده ، ولاسيما بالقدس . بل أنه هدد كذلك بغلق الاماكن المقدسة ، وقام بحمل هذه الرسالة راهب أسباني فرنسيسكاني في بيت المقدس اسمه الاخ « مورو Mouro » ، وكلفه الغوري بالمرور في طريقه بالبندقية ، فقصد هذا الراهب الى روما حيث التقى بالبابا يوليوبس الثاني في ربيع عام ١٥٠٤ وأحسن البابا لقاءه ووعده بالكتابه الى ملك البرتغال لوقف ارسال الحملات الغربية الى الهند وقد أتم هذا الراهب جولته في بلاط كل من إسبانيا والبرتغال دون أن تتحقق مهمته الدبلوماسية أى جدوى . وعندما زاد احساس البندقية بخطورة الموقف ، أرسلت سفارة دبلوماسية أخرى الى الغوري في سنة ١٥٠٤ ، وتركت مهمتها حول تقديم عروض أحسن وأقوى للسلطان نظراً لا طرداد عجز البندقة عن مقاومة البرتغاليين الذين غزوا أسواق أوروبا بالمنتجات الشرقية ، لدرجة أن قام حزب كبير في البندقية يطالب الحكومة بالشراء من لشبونة وليس من الاسكندرية . ولذا اقتربت من جديد سفارة عام ١٥٠٤ ، أن يفرق السلطان الغوري الاسواق بالتوابل حتى يستطيع منافسة البرتغال ، وأن يستخدم نفوذه لدى أمراء الهند لقطع صلاتهم بالبرتغاليين . ثم أنها اقتربت كذلك شق قناة في برباز السويس ، ونظراً لأنها أهملت موالية المشروع ، فقد ترك دون تنفيذ^(٤٧) .

(٤٦) نعيم زكي نعيم (دكتور) : المراجع السابق ، ص ٣٧٨ .

Charles, Roux, J. : L'Isthme et le Canal de Suez, T.I., p.45 (٤٧) .

وقد اتجه السلطان قونصوه الغوري الذى مواجهة النشاط البرتغالي بالقوة عندما أصدر أمره في سبتمبر سنة ١٥٠٥ باعداد حملة حربية بقيادة الامير حسين الكردى نائب جده ، و تكونت من خمسين سفينة من نوع «الاغربة» و تحركت الحملة من القاهرة و سارت في النيل عن طريق القناة (خليج أمير المؤمنين) في شرق الدلتا الى البحيرات المرة الى السويس ومنها الى ينبع فجده ، ثم غادرت جدة واستولت في طريقها على سواكن عام ١٥٠٦ وسوف تتحدث عن هذه الحملة بالتفصيل عند معالجة الاثر الاستراتيجي ، غير أنه يهمنا أن نشير في هذا الصدد الى أن الغوري قد أرسل سفيره الترجمان تغرى بردى الأسباني بنداء الى أوربا في أبريل سنة ١٥٠٦ ، واستغرقت رحلة هذا الترجمان ثمانية عشر شهرا ، زار فيها قبرص التابعة للسلطنة المملوكية آنذاك ، وأصطحب منها من أرشده الى رودس حيث استقبله الرئيس « امرى دامبواز Aimery d'Amboise » ثم خرج تغرى بردى من رودس الى البندقية حيث وقع اتفاقية تجارية جديدة معها ، ولم تتحقق هذه السفاراة كسابقتها أى جدوى كما حدث مع سفاراة الراهب مورو من قبل ، وعاد تغرى بردى الى مصر في سبتمبر عام ١٥٠٧ ^(٤٨) .

وعندما يثبتت البندقية من مقدرة المالكى على التغلب على البرتغاليين واعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدى القديم ، فإنها لجأت الى التعاون مع الصفويين عليهم ينجحون فيما فشل المالكى في تحقيقه ، مما أدى الى تدهور العلاقة بين السلطنة المملوكية والبندقية ، اذ حدث أن تبض السلطان الغوري على بعض البنادقة ومعهم خطابا من

(٤٨) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٦ .

الشاه اسماعيل الصفوي للاستعانته بدولة اوروبية للقيام بهجوم بحري على سواحل مصر ، على حين يقوم الصفوي بمحاجمتها برا ، ولم يذكر ابن ایاس اسم هذه الدولة ، ولكن المصادر الاوروبية أشارت الى أن هذه الدولة هي جمهورية البندقية . وهذا ما جعل السلطان الغوري يقبض على قنصل البندقية في دمشق ، وجيء به مكلا الى القاهرة ، كما قبض على زملائه الاخرين في طرابلس والاسكندرية ، وحقق معهم ، وحينئذ لم يسع الغوري الا أن ينفذ ما سبق أن هدد به وهو قفل الاماكن المقدسة في القدس ، فقبض على جميع مسيحيي القدس وأغلق كنيسة القيامة وصادر محتوياتها في يناير سنة ١٥١١ ، وفي نفس الوقت علم بخيانة الترجمان تغزى بردى، اذ كاتب الدول الاوروبية بضعف الملاليك الحربي وعدم تحصين السواحل المصرية التحصين الكافى فقبض عليه في مارس ١٥١١^(٤٩) .

وقد توالت احتجاجات الدول الاوروبية على تصرف الغوري ، وجاءت الى مصر سفارة فرنسية من قبل الملك لويس الثانى عشر ملك فرنسا في مارس سنة ١٥١٢ ، وكان هدف هذه السفارة عقد اتفاق تجاري مع مصر واطلاق حرية التجارة في موانئ مصر والشام والسماح للحجاج بزيارة الاماكن المقدسة كالمعتاد ، ووعدت السفارة بمساعدة فرنسا ضد بلاد البرتغال ، غير أن السفير الفرنسي لم ينجح الا في اطلاق سراح الاسرى الفرنسيين . ولما انتشرت أنباء السفارة الفرنسية ، أسرعت البندقية وأوفدت بعثة

دبلوماسية على رأسها « دومينيكو تريفازاني Domenico Trevisani » واستطاع هذا السفير أن يعقد أول اجتماع مع السلطان الغوري في مايو سنة ١٥١٢م ، وبدأت البعثة عملها وفق برنامج مفصل محمد في لين وسلامة

(٤٩) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٧ .

مع شيء من العناد والصلابة يحمل على الاعجاب . وكان يظاهر البشارة بعض قطع من الاسطول التجارى البندقى الذى مر بـ كريت وقبرص والاستكدرية ، فسر السلطان الغورى مما أظهره البندقة ، أصدقاؤه القدماء ، من اخلاص ، ونجحت مهمة السفير فى اطلاق سراح المسجونين ، وأعيدت الصدقة والصلة بين السلطنة المملوكية والبندقية ، وتعهد البندقة بتزويد المماليك بالأسلحة والاخشاب لواصلة نضالهم ضد البرتغاليين ، ثم غادر « تريفازانى » مصر فى أغسطس سنة ١٥١٢ م^(٥) . ومن الواضح أن الغورى كان يهدف آنذاك إلى تجديد علاقاته مع البندقة حتى يحصل على مساعداتهم له فى مواجهة النشاط البرتغالي المتزايد فى البحرى الشرقي .

وعندما تم للعثمانيين السيطرة على مصر بدخول السلطان سليم الاول مدينة القاهرة فى اليوم الثالث من شهر المحرم عام ٩٤٣ هـ الموافق السادس والعشرين من شهر يناير عام ١٥١٧ وامتدت اقامته فيها ثمانية أشهر ، فقد أدرك العثمانيون أهمية مصر كمعبير للتجارة العالمية ، ومدى ما أصابها من تدهور اقتصادى نتيجة لتحول هذه التجارة إلى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين منذ وصولهم إلى الهند فى سنة ١٤٩٨ . وللهذا فقد حرص السلطان سليم الاول على انشعاش حركة التجارة ، التى كان يرد إلى مصر آنذاك جزء منها عبر الطرق البرية ، ومن المناطق المطلة على البحر الاحمر والخليج العربى الداخلية ، أى من المواهى الواقعة شرقى مصر وجنوبيها وغربها ، والتى كان من دواعى استمرار الحركة التجارية فيها رحلة الحج إلى الأراضى المقدسة فى الحجاز حيث كان الحجاج

(٥) ابراهيم على طرخان (دكتور) : المرجع السابق ، ص ٢٩٨ .

يحضرون معهم الكثير من المتساحر الشرقي لتنظيمة تكاليف رحلتهم ، ولممارسة النشاط التجارى عبر الطرق المذكورة . ولهذا فقد أراد السلطان سليم أن يخمن تسويق ما يصل إلى مصر من هذه التجارة عن طريق البنادقة الذين يقومون بتوزيعها في أوروبا وذلك بعقد معايدة تجارية معهم لهذا الغرض . وكان للعثمانيين خبرة سابقة في هذا المجال حيث عقد السلطان محمد الثاني الفاتح اتفاقية مع الجنوبيين في الحادى عشر من مارس عام ١٤٥٤ ، واتفاقية أخرى مع البنادقة في الثامن عشر من أبريل من نفس السنة أي في العام الثاني مباشرة لفتح العثمانيين للمقسطنطينية ^(٥١) .

وهكذا عقد السلطان سليم الأول معايدة مع البنادقة في الثاني والعشرين من شهر المحرم عام ٩٢٣ الموافق الرابع عشر من فبراير عام ١٥١٧ لتشجيع البنادقة على القدوم إلى الإسكندرية بسفنه وبضائعهم ومباشرة نشاطهم التجارى في جو من الطمأنينة والعدالة والأمن . وقد نشر الاستاذ « إتيان كومب Etienne Combe » نصوص هذه المعاهدة باللغة الفرنسية ^(٥٢) ونشرت بعد ذلك مترجمة إلى العربية ^(٥٣) وجاءت في ديباجتها ملاحظة تفيد بأن التعليمات التي أوردتها موجهة بصفة خاصة إلى حاكم مدينة الإسكندرية وموظفيها العموميين ومفتشي وضباط الشرطة كى يحافظوا على ما تم الاتفاق عليه بين التعاقددين على الامتيازات السابق منحها لهم أيام الملك بعد موافقة السلطان سليم الأول عليها . وأشارت

(٥١) نعيم زكي نعيم (دكتور) . المرجع السابق : ص ٢٥ - ٤٢٨ .

Crombe, E. : *Precis de l'Histoire d'Egypte T. III. p.6 ff. (Wiet, G.). 1: Traité : Veneto-Turc De 1517.*

(٥٢)

(٥٣) نعيم زكي نعيم (دكتور) : المرجع السابق . ص ٢٩ - ٣٥ .

عبد العزير محمد الشناوى (دكتور) الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها : الجزء الثانى ص ٧٠٦ - ٧٠٠ .

المادة الاولى من هذه المعايدة الى أن جميع البراءات الممنوحة للبنادقة من قبل صار الموافقة والتصديق عليها . وان رعيا البندقية يعاملون بالعدل ويقابلون بترحاب من الجميع ولا يتحقق لاي فرد أن يعيدهم أو يتکبر عليهم في الموانئ المصرية عامة ، وان من حقهم البيع والشراء والأخذ والعطاء ، ولا يدانوا لخطأ ارتكبه غيرهم من أبناء الامم الأخرى بالمدن المصرية ، وان يعلن هذا لجميع القضاة والم هيئات المسؤولة ، وليس من حق اي فرد الخروج على هذه القوانين ، كما يجب معاملتهم حسب الاصول والعادات المرعية بدون أي تغيير أو تعديل .

وأوردت المسادة الثانية من هذه المعايدة بين العثمانيين والبنادقة الالتزام بعدم تكدير البنادقة أو الاستيلاء على ممتلكاتهم أو متاجرهم بالقوة أو على مراكبهم أو ما في داخل مخازنهم ، كما لا يحق لاي فرد أن يجبرهم على البيع اذا لم يوافقوا على ذلك ، كما لا يجبرون على دفع عوائد غير عادلة أو لازوم لها . وبينما أشارت المسادة الثالثة الى أنه بامكان قنصل البندقية أن يبيع ويشتري بالنقد بدون حدود . وحددت المسادة الرابعة أن القنصل يحصل على مرتبه مجمدا كل أربعة شهور . وأشارت المسادة الخامسة الى أن القنصل دون سواه هو الذى يباشر الشئون القانونية والقضائية لمواطنه ويت في الامور لصالحهم . أما من يرفض الانصياع لحكم القنصل ويلجأ الى القضاء الوطنى الاسلامى لينقض قانونا أو حكما أصدره القنصل ، فلا يستصح له ولا يحق للقاضى استقباله أو نظر شكواه عليه أن يعيده الى قنصله ، وإذا رغب القنصل في طرد أحد البنادقة فعلى القاضى أن يعينه في ذلك . كما منع القنصل حق ابداء الرأى في سفر الافراد على سفن بلاده ، ولا يحق لاي فرد كان أن يغادر الاسكندرية على ظهر

احدى سفن البدنية ليعود الى وطنه او ييارحها لاي قطر شاء الا بعد الحصول على تأشيرة خروج من القنصل نفسه .

وحددت المادة السادسة من المعاهدة الاجراءات المسموح باتخاذها ازاء سفن البناية عند وصولها الى الاسكندرية فأشارت الى أنه اذا وصلت اي سفينة من البدنية الى الاسكندرية او باسم البدنية ، فلا يحق لاي موظف ان يرتقيها ويحصل منها على ما يريد من معلومات او بيانات ، ولا أن يحتك بأى فرد من أفرادها ويسمح لهم بصعود المسفينة في حالة الشراء فقط ، ويدخل ضمن السلع المستراه السلع التي تحملها السفن « كالعسل والفاكهه » . وحرمت المادة السابعة على اي فرد سواء كان حاكم مدينة الاسكندرية او عين من أعianها او تجارها او اي فرد من افراد الشعب او لقططانها على سفن الميناء أن يستولوا على اي سفينة للبناية تصل للميناء ، او على حمولتها او قلوعها او مجاديفها لاي سبب سواء كان قرضا او شراء . وأشارت المادة الثامنة الى أنه يصير تنفيذ كل التجديفات او المباني اللازمة او الاعمال الضرورية في فندق البناية . واذا رغب القنصل في بناء مبني جميل خاص به فله ما يشاء ، وممنوع منعا باتا التعرض له او رفع أجور العمال او أسعار المواد اللازمة للبناء ، وممنوع على اي فرد مضائقتهم او التعرض لهم اذا رغبوا في استخدام صناع من البدنية او من الاجانب دون الوطنين . ونصت المادة التاسعة على أنه اذا رغب قنصل البدنية في مقابلة اي فرد من الحكومة في دواوينهم وامتنع صهوة جواده او رغب في الخروج الى الحدائق العامة او اي مكان في اطراف الاسكندرية فله أن يفعل ما يشاء وليس لاي فرد أن يعترضه .

وقد أشارت المادة العاشرة الى أن السلع الخاصة بالبناية والتي تتعرض للغرق يصير انقاذهما وتترد لاصحابها ، أما السلع التي تقذفها

الامواج الى الشاطئ نتيجة الغرق لاحدى السفن فهى ترد لاصحابها ان عرضا او اثبتوا شخصياتهم وملكياتهم لهذه السلع او ترد لقنصل البندقية أما بالنسبة للسفن التى تصل للشاطئ سليمة بعد انقادها فيجب صيانتها وجاء في المادة الحادية عشر أن سفن البنادقة التى تلجم ميناء الاسكندرية لسوء الاحوال الجوية ولا ترغب في تفريغ حمولتها لها أن تتم رحلتها اذا نم يكن عليها سلع للاسكندرية ، و اذا كان عليها سلع خاصة بالاسكندرية فلا يحق لها أن تفرغها في أي ميناء الا في الاسكندرية نفسها . و اذا كانت هذه السفن تحمل سلعا لم ينص عليها في المعاهدات ولا يتاجر فيها الا في الاسكندرية فتتمكن من التعامل أو الملاحة على طول سواحل مصر .

اما بالنسبة للعلاقات السياسية فقد أوردت المادة الثانية عشرة من المعاهدة المعقودة بين البندقية والسلطان سليم الاول عام ١٥١٧ أنه اذا حدث أي حادث لاحد رعايا السلطان في البندقية او الجزر التي تقع تحت سيطرتها فلا يحال القنصل عن هذا ، كما أنه لا يتحمل النتائج المترتبة على الحادث . أما من يكون مديونا لاحد رعايا السلطان شأنه يحجز حتى يوفى الدين ويسرى ذلك على الضامن ، ويجب أن يكون جميع رعايا السلطان في أمان تام في موانئ البندقية والبلاد الخاضعة لها . كما ألغت المادة الثالثة عشرة القنصل البندقى من دفع ضريبة الایراد أو ضرائب أخرى ما عد في حالات صدور أوامر خاصة بذلك من السلطان أو من القضاء . واشترطت المادة الرابعة عشرة أنه اذا أصر القراءنة على أسر سفن للبنادقة تسم جاءوا للبيعها في موانئ السلطان فمحظور على أي فرد شراؤها أو التعامل مع القراءنة ويجب تحرير السفينة وما عليها من متاجر وردها للتجار . ونحت المادة الخامسة عشرة من المعاهدة أنه اذا حدث خلاف بين عرب وأجنبى سواء كان من البنادقة أو من غيرهم أو القنصل أو تاجر أو أي

مواطن عادى أو عضو في وكالاتهم فلا يحق لاي فرد اهانته أو الحق الفرد به . واحتقرت المادة السادسة عشرة أن كل هذه المنع والشروط والامتيازات الممنوعة للبنادقة تسجل في سجل خاص ويعرف عليها كل مسئول بالولاية وكل من له علاقة بالاجانب أو بالحكم في مصر . وبموجب المادة السابعة عشرة يكون لقنصل البنديقية السلطة التامة اذا رغب في أن يقيم ثائباً عنه « قنصل بالنيابة » أو نائب قنصل في البرلس وله أن يفعل ذلك كلما شاء دون استئذان السلطان .

وقد قررت المادة الثامنة عشرة أن قنصل البنادقة قد عرض أنه حسب المعتاد آنذاك كانت تصل بعض السفن من كوريا أو اقطار تابعة للبنديقية تجلب كميات من الزيت اللازم للسفن وكان المعتاد بيعها على السفن ولكن سلطات الاسكندرية كانت ترفض هذا البيع لكي تبيع ما لديها في مستودعاتها . هذا الامر كما أشارت تلك المادة كان ينبغي أن يتدارك : فسفون البنديقية كانت تستطيع منذ عقد المعاهدة فصاعداً بيع هذا الزيت دون ازالته للساحن ولا يعترضها أى فرد . وفي حالة وصول هذه السفن إلى بولاق تتبع القواعد المرسومة في هذا الميناء . وقد أشار قنصل البنديقية – في المادة التاسعة عشرة – إلى العبيد والفقراء الاجانب الذين يعيشون في الاسكندرية واعتادوا الورود إلى فندق البنادقة لكي يأكلوا . وكان اذا مات أحد العبيد بالفنادق فالقنصل مطالب بدفع ثمنه . وكان الثمن يفرض مرتفعاً . وقد اشترطت هذه المادة أن هذا يصير مفروضاً منذ ذلك الحين . كذلك حظرت المادة العشرون على موظفي الجمرك والحملين والكتافيين مضائق البنادقة في حالة اعادة تسليمهم الفواكه أو سلع أخرى تحملها سفنهم . وفيما يتعلق برسوم وأجور الحمالين والكتافيين فقد نصت المادة الحادية والعشرون : على أن يدفع دينار واحد عن كل سلة توابل مملؤة ويحملها الكتافى البحرى

ويحصل الحمال على دينار واحد عن كل سلة يحملها . وقررت المادة الثانية والعشرون انماض وتخفيض الضرائب التي تدفع عن يوم من الاجاب في بلاد السلطان . كما قررت المادة الثالثة والعشرون أن الافرنجي الذي يبرد للقاهرة من الاسكندرية أو رشيد أو دمياط لا تحصل منه ضرائب لافعله ولا في ترحاله . واختتمت المادة الرابعة والعشرون من العاهدة المعقودة بين السلطان سليم الاول والبندقية عام ١٥١٧ بالاشارة إلى أن السمسرة الذين يعملون لدى الوسطاء التجاريين لهم حق استخدام ترجمته ولا يمنع عنهم معاونة الترجمة الرسميين لقاء رسوم معينة . كما قررت المادة الخامسة والعشرون أنه في حالة نقل البضائع المستوردة المصدرة من الجمرك للسفن وبالعكس لا يطلب القنصل ولا الناشر بشو ما ، كما لا يحق منع التجار من توزيع وبيع الفواكه المحفوظة والمسك والطازجة للمسافرين . هذا بينما حددت المادة السادسة والعشرون ألا يجوز اطلاقا مضايقة القنصل أو التجار أثناء تجوالهم وتترهم في حدائق الاسكندرية وعلى ضفاف القناة أو في أي مكان آخر . وأكدت المادة السابعة والعشرون على حق التجار البنادقة في شحن وتوزيع وتغليف سلعهم قواربهم وسفنهم الخاصة ، كما أكدت المادة الثامنة والعشرون أن للبنادقة حق شحن وتوزيع وتغليف سلعهم في قواربهم وسفنهم الخاصة . وسوغت المادة التاسعة والعشرون للكشافيين بالقيام بعملهم في حالات الشحن والتغليف يكون بموافقة ومرافقة البنادقة . وما يفسده أو يستهلكه الحمالون يجب أن يعوض عنه البنادقة .

وأشترطت المادة الثلاثون ، بأنه لا يتصدى أى فرد للقنصل أو لتجار البنادقة الا عن طريق القضاء وأمام المحاكم ، ويراعى ألا يؤخذ الابن بجريمة الاب ، ولا الاب بجريمة الابن ، الا اذا كان أحدهما خامنا للآخر

شخصياً ومالياً ، أما الديون فاستعادتها تكون حسب الشريعة . كما اشترطت المادة الحادية والثلاثون كذلك أن جميع التجار ومرافقهم الذين يصلون إلى موانئ مصر يعاملون بكل احترام واعتبار من الجميع . وفي خاتمة المعاهدة نصت المادة الثانية والثلاثون على أن قنصل البندقية في الاسكندرية قد قدم مذكرة تقرير فيها أن البنادقة كانوا يتمتعون أيام دولة المماليك الشراكسة بالاعفاء من ضريبة البهار . ولكن حدث أن فرضت حكومة السلطان قانصوه الغوري رسوماً جديدة بلغت خمسة آلاف دينار سنوياً . ويطلب القنصل باعادة تقرير هذا الاعفاء الضريبي وتقرر الاستجابة لهذا الطلب .

كانت هذه هي البنود الثانية والثلاثون لمعاهدة التي عقدت بين السلطان سليم الأول والبنادقة عقب فتح العثمانيين لمصر في سنة ١٥١٧ . وهي شكل دليلاً تاريخياً على حرص الاتراك العثمانيين على تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى والاقتصادى مع مصر التي غدت ولاية عثمانية حتى تعود الحركة التجارية بقدر الامكان إلى نشاطها المعهود قبيل تحول التجارة العالمية إلى طريق رأى الرجاء الصالح . ولائحة هذه المعاهدة تعد أبلغ رد على الفرية التي يرددوها بعض المؤرخين والباحثين المتحاملين على الدولة العثمانية والذين يدعون أنها فرضت على ولاياتها العربية العزلة عن أوروبا . كما أن هذه المعاهدة تميزت بوجود فارق بينها وبين المعاهدات التي عقدها السلطان سليمان المشرع وخلفاؤه تباعاً مع الدول الاوروبية في هذا الصدد . ففيما كان الهدف من المعاهدات الأخيرة هو تشجيع رعايا الدول الاوروبية على توثيق صلاتهم التجارية مع ممتلكات الدولة العثمانية بوجه عام ، فقد كانت معاهدة البندقية تستهدف تشجيع رعايا جمهورية البندقية على تكثيف نشاطهم التجارى في

مصر والاسكندرية بوجه خاص . كذلك ترجع أهمية معاهدة البنديقية إلى أن كثيراً من نصوصها ، أو نصوصها على غرارها ، قد أدرجت بعد ذلك في المعاهدات اللاحقة التي عقدتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية ، إذ كان هناك تنافس بين الدول على الحصول على أكبر قدر من الامتيازات فرعاً بها آنذاك ، فكانت كل دولة أوروبية تحرص على أن تجني المعاهدة التي تعقدها مع الدولة العثمانية جامحة وشاملة لكل الامتيازات التي سبق تقريرها لغيرها ^(٥٢) .

نفي عهد السلطان سليمان المشرع خططت الدولة العثمانية خطوات حامدة في سياسة الانفتاح تجاريًا مع عدد من الدول الأوروبية لتنشيط الحركة التجارية التي أصابها الضعف المحتفظ عقب تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح . إذ عقد السلطان سليمان، المشرع مع فرنسا أول ملك فرنسا معااهدة عام ١٥٢٨ جددت فيها الدولة العثمانية الامتيازات التي سبق أن منحها سلاطين دولة المالكية الجراكسة للفرنسيين « وأهل كتالونيا Les Catalans وكانت المعاهدات الجديدة تتکفل لتجار فرنسا ورعاياها الامن والطمأنينة على أرواحهم وأموالهم ومتاجرهم في اتفاق توأجدهم في ممتلكات الدولة . كما تتکفل لهم حرية التجارة والتنقل برا وبحرا دون أن يمسهم سوء ودون أن يتعرضوا لمضايقات من السلطات العثمانية . بل إنها تنظم اقامتهم في أحياء أو خانات خاصة مع عدم المساس بكفائتهم وعدم فرض خرائب عقارية عليها . كما تمنع السفن العثمانية التي تقوم برحلات محربة بين استانبول وموانئ الشام ومصر من عرقلة

^{٥٤} عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها : من ٦٧٠-٧٠٧ .

نشاط السفن الفرنسية التي تعمل على هذه الخطوط الملاحية . وترتبط معااهدة ١٥٢٨ بمعاهدة البندقية لعام ١٥١٧ من حيث الهدف ، اذ كانت موادها مقصورة في الغالب على بلاد الشام ومصر وبعامة ، والاسكندرية بخاصة .

ولاشك أن ابرام هذه المعااهدة كان مسبحاً لملك فرنسا «فرنسوا الأول» والسلطان سليمان المشرع ، نظراً للعلاقات الودية الوثيقة بينهما ، على عقد معااهدة هامة أكثر شمولاً عرفت باسم «معاهدة صداقة وتجارة بين الامبراطورية العثمانية وفرنسا» وقد عقدت في شهر فبراير سنة ١٥٣٥ وتقرر فيها منح تجار فرنسا وسائر رعاياها الذين يذهبون إلى أقاليم الدولة العثمانية بعض الامتيازات في مقابل منح الرعايا العثمانيين امتيازات مناسبة مماثلة لها تقريباً . وسوف نعرض فيما يلى لخصوص هذه المعااهدة لابراز أهميتها في تنفيذ سياسة التنشيط التجارى التي تبنتها الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية وخاصة المطلة منها على البحر المتوسط لتعويض ما فقدته من نشاط تجاري نتيجة لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط منذ نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلاديين .

ونقع معااهدة عام ١٥٣٥ بين الدولة العثمانية وفرنسا في ست عشرة مادة وقررت المادة الأولى منها السماح لرعاياها الدولة العثمانية وفرنسا وتابعيهم بالتجول في جميع ممتلكات الدولتين بما فيها المدن والقغور والجزر وسائر الأقاليم التي تدخل في حوزة كل من السلطان وملك فرنسا ، على أن يكون هذا التجول بهدف ممارسة العمليات التجارية والعودة إلى بلادهم بكامل حرفيتهم دون أن يقع اعتداء عليهم أو على متاجرهم . بينما نصت المادة الثانية على أن العمليات التجارية تشمل البيع والشراء والمبادلة في كافة الملح غير المنوع الاتجاح فيها ، ونقلها براً وبحراً بعد سداد الرسوم

المقررة ، بحيث يدفع الفرنسيون في أقاليم «الدو» العثمانية ما يدفعه العثمانيون ، وأن يسدد العثمانيون في فرنسا ما يدفعه الفرنسيون ، دون أن يدفع أي من الطرفين خرائب أو مكوسا جديدة أخرى .

وجاء في المادة الثالثة من هذه المعاهدة أنه «فضلاً عن هذا ، كلما يعين ملك فرنسا في استانبول ^(٥٥) ، أو بيرا أو غيرهما من مدن الدولة العثمانية أحد رجال القانون ، كالقنصل المعين حالما في الإسكندرية » ، فيجب أن يقابل هذا القانوني والقنصل بطريقة لائقة ، وأن يحتفظ كل منهما بسلطته الخاصة بحيث يكون لكل منهما الحق في العمل في جميع القضايا والخلافات المدنية والجنائية التي تقع في دائرة ، طبقاً لعقيدته وقانونه بين التجار ورعايا ملك فرنسا الآخرين ، بدون أن يمنعه من ذلك أي قاض أو صوباشي ^(٥٦) ، أو أي موظف آخر . ولكن إذا رفض أحد من رعايا ملك فرنسا اطاعة الأوامر الصادرة من القانوني أو القنصل فلهم في هذه الحالة فقط أن يستعينا بالصوباشي أو أحد ضباط السلطان في تنفيذ الأحكام . وعلى هؤلاء الصوباشية أو الضباط الآخرين أن يقدموا مساعدتهم الضرورية والتي تكفل إجبار الآخرين على تنفيذ أحكامهم . ولكن ليس للقاضي أو أي ضابط تابعين لحكومة السلطان أو يحكموا في المدن العبريات التي تنشأ ببيس التجار ورعايا ملك فرنسا ، حتى لو طلب التجار المذكورون ذلك . وإذا نظر القضاة بمجرد المصادفة في قضية فإن حكمهم يكون لاغياً وباطلاً .

أما المادة الرابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية عام ١٥٣٥ فقد منعت استدعاء أو الاعتداء على التجار ورعايا ملك فرنسا ، أو محاكمتهم

(٥٥) وردت في النصين الفرنسي والإنجليزي «القدسية» وهذا مدرجت عليه المصادر والمراجع الأوربية من الأصرار على تسمية استانبول بالقدسية من قبل التحصّب للتسمية المسيحية البيزنطية من قبل .

(٥٦) الصوباشي لفظة تعنى ضابط في الجيش العثماني ويكلف أحياناً بأعمال «كمتل» على مدينة أو حاكم لتقسيم إداري صغير .

في الدّعوى المدنية التي يقيّمها عليهم العثمانيون أو جباه الخراج أو غيرهم من رعايا جلالة السلطان ، مالم يكن بيد المدعين مستندات بخط المدعى عليهم ، أو حجة رسمية صادرة من القاضي الشرعي أو رجل القانون الفرنسي أو القنصل . وفي حالة وجود هذه المستندات والمحجج لا يجوز للقضاء الشرعيين أو الصوباشية أو أي موظفين آخرين مع الدعوى ومحاكمة هؤلاء الرعايا الفرنسيين إلا في حضور ترجمان قنصل فرنسا . كما نصت المادة السادسة من تلك المعاهدة على أنه لا يجوز محاكمة التجار الفرنسيين ومستخدميهم وخدمهم وجميع رعايا ملك فرنسا الآخرين فيما يختص بالمسائل الدينية أمام القضاة الشرعيين والمصادقة البكوات والصوباشية أو غيرهم ، بل تكون محاكمتهم أمام الباب العالى . ولا يمكن اعتبارهم مسلمين أو النظر إليهم على أنهم مسلمون إلا إذا رغبوا في ذلك واعترفوا صراحة وبدون اكراه يقع عليهم . ولهم الحق في ممارسة شعائر دينهم .

أما المادة السابعة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ فأنها تنص على أنه إذا تعاقد شخص أو أكثر مع شخص من رعايا ملك فرنسا مع أحد العثمانيين أو إذا استولى على ساح منه أو افترض مبالغ ، تم غادر بلاد جلالة السلطان قبل أن يقوم بالوفاء بالالتزاماته أو ديونه ، فلا يسأل رجل القانون الفرنسي أو الفرنسي أو القنصل أو أقارب المدين أو أي شخص فرنسي آخر عن ذلك مطلقاً ، ولا يتعرض له أحد بالايذاء ولا يكون ملك فرنسا ملزماً بشيء . ولكن يمكنه أن يستوفى طلب المدعى من المدعى عليه ، ومن أملاكه لو وجدت له أملاك في الأراضي الفرنسية . كما نصت المادة الثامنة على أنه لا يجوز القاء القبض على تاجر فرنسا ووكالاتهم وخدمتهم وسائر الرعايا الفرنسيين ، واقراهم على العمل في خدمة سلطان العثماني أو أي شخص آخر في البر والبحر ، مالم يكن باختيارهم

وطوعهم . وكذلك لا يجوز استخدام سفنهم أو قواربهم أو ما يوجد بمن
من معدات أو مدافع أو ذخائر أو سلع الا بموافقتهم ورضائهم .

وقررت المادة العاشرة أنه بمجرد تصديق السلطان وملك فرنسا على
هذه المعاهدة فإن جميع رعاياهما الموجودين عندهما أو عند تابعيهما أو على
سفنها أو في أي مكان تابع لسلطتها ، في حالة الرق ، سواء كان ذلك بشراطهما
أو بوقوعهم في الأسر وقت الحرب أو باحتجازهم . يطلق سراحهم فورا
بمجرد طلب وتقرير من السفير أو القنصل أو أشخاص آخرين يعينون لهذا
الغرض . وإذا كان أحد الأسرى قد تحول عن دينه فلا يكون تغيير عقيدته
الدينية مانعا من إطلاق سراحه . كما أوردت تلك المادة أنه « من الان
يصادعا لا يجوز للسلطان ، ولا للملك فرنسا ، ولا نهضة الاساطيل البحرية ،
ولا لقواعد الجيش ، ولا لاي أشخاص آخرين تابعين لأحد العاهلين أو من
يستأحرانهم لذلك ، سواء في البر أو في البحر ،أخذ أو شراء أو بيع
أو حجز أسرى الحرب بصفة أرقاء . وإذا حاول أحد القراءة أو غيره
من رعايا العاهلين أسر أحد رعايا الطرف الآخر أو انتصاف أملاكه أو أمواله ،
فيجب احاطة حاكم الجهة عنما بذلك ، وعليه ضبط الفاعل ومعاقبته بتغيرة
تعكير السلام بين الدولتين ، ولزيكون عقابه عبره لغيره ، ورد ما يكون
عنه من الأشياء المعتسبة إلى من أخذت منه . وإذا لم يضبط الجاني فورا
واستطاع المهرب دون محاكمة فيجب نفيه من بلاده مع جميع شركائه .
وتقوم الحكومة التابع لها هؤلاء الجناء بمصادرة ممتلكاتهم ، ودفع
التعويضات عن الأضرار التي أصابت المجني عليه ، من ممتلكات الجناء
وهذا لا يمنع من مجازاتهم إذا تم القبض عليهم فيما بعد . وللمجني عليه
أن يستعين على الحصول على التعويضات من ضمن هذا الصلح ، وهو
السر عسكر عن السلطان ، وأكبر القضاة عن ملك فرنسا .

ونصت المادة الثانية عشرة على أنه اذا وصلت الى أحد موانئ أو سواحل الدولة العثمانية احدى السفن التابعة لرعاياها ملك فرنسا سواء كان وصولها بطريق الصدفة أو غير ذلك فيجب تزويدها بما يلزمها من مواد تموينية وغيرها من المضوريات في مقابل دفع الثمن المناسب بدون الزامها بتفريغ شحنتها أو دفع رسوم ، ثم يباح لها ال碧فر الى حيث تريد • وإذا وصلت الى استانبول وأرادت السفر منها بعد حصولها على جواز الخروج من أمين الجمرك ، ودفع الرسوم المقررة : وتفتيشها بمعرفة أمين الجمرك المشار اليه ، فلا يجوز زيارتها أو تفتيشها في أي مكان آخر ، الا عند الحصون المقامة عند مدخل بوغاز غالیبولي ، بدون أن تدفع شيئاً مطلقاً لرحيلها ، سواء عند هذا البوغاز أو في أي مكان آخر خروجها ، سوى ما سبق دفعه ، سواء كان الطلب باسم السلطان أو أحد ضباطه •

وأشارت المادة الثالثة عشرة أنه اذا تحطمت أو غرقت بطريق الصدفة أو غير ذلك احدى السفن التابعة لرعايا أحد العاهلين في البلاد التابعة لهما ولقضائهما ، فإن جميع الأفراد الناجين من هذا الخطر يظلون متبعين بحريتهم ، ولا يحال بينهم وبينأخذ أو جمع ما يكون لهم من الامتعة وغيرها • أما اذا غرق جميع من بها فان البضائع التي يمكن انقاذهما تسلم الى القنصل أو أحد رجال القانون في القنصلية أو من يمثلهما ، ليس لهم الى من تتصل بورشتهم ، بدون أن يستولى القبود ان باشبا أو الصنجرق بك أو المصوباشي أو القاضي أو اي ضابط او احد رعايا السلطان على شيء منها ، والاتوقع عليهم العقوبات • وعلى هؤلاء أن يقدموا التسهيلات والمساعدة لن يعهد اليهم باستعادة البضائع •

كما نصت المادة الرابعة عشرة على أنه اذا هرب أحد العبيد التابعين

لأخذ رعایا السلطان وادعی هذا العثماني أن عبده قد لاذ بأحد رعایا ملك فرنسا وخدم في سفینته أو في منزله ، فان هذا العثماني لا يستطيع أن يجبر الفرنسي على عمل شيء سوى السماح له بالبحث عن العبد في سفینته أو في داره . واذا أسفـر البحث عن العثور على العبد فـان الفـرنـسي يـعـاقـبـ بمـعـرـفـةـ قـنـصـلـهـ وـيـرـدـ العـبـدـ لـسـيـدـهـ . واـذاـ لمـ يـوـجـدـ العـبـدـ فـيـ سـفـيـنـتـهـ أوـ دـارـهـ الفـرنـسيـ ، فـيـجـبـ أـلـاـ يـتـعـرـضـ الفـرنـسيـ لـلـإـيـذـاءـ مـطـلـقاـ ، وـعـلـىـ أـىـ نـحـوـ مـنـ الـإـنـحـاءـ بـعـيـبـ هـذـاـ الحـادـثـ .

اما المادة الخامسة عشرة فقررت أن كل فرد من رعایا ملك فرنسا لم يكن قد أقام بأراضي الدولة العثمانية مدة عشر سنوات كاملة بدون انقطاع لا يلزم بدفع الخراج او أي ضريبة أيا كان اسمها ، ولا يلزم بحراسة الاراضي المجاورة او مخازن السلطان ، ولا بالعمل في ترسانة ، او اي عمل اخر بطريق الاكراء . وينصح رعایا الدولة العثمانية امتيازات مقابلة في بلاد فرنسا . وتضمنت المعاهدة اقتراح ملك فرنسا بدعوة البابا وملك انجلترا ، أخيه وحليفة الابدي ، وملك اسكتلندا للانضمام لهذه المعاهدة .

وأخيراً قررت المادة السادسة عشرة من المعاهدة العثمانية الفرنسية المعقودة عام ١٥٣٥ أن يتم تبادل وثائق التصديق على المعاهدة بمعرفة العاهلين في خلال ستة أشهر من تاريخ التوقيع عليها ، مع الوعد من كليهما بالمحافظة على تنفيذها ، والتنبيه على جميع القضاة والضباط ورعاياهما بمراعاة جميع احكامها بكل دقة . وحتى لا يدعى أحد الجهل بها ، يجب نشر نسخ منها بعد التصديق عليها في استانبول والاسكندرية ومارسيليا

وناربورن Narbonne ، وفي جميع المدن والموانئ المشهورة التابعة لكل من المطرفيين (٥٧) .

وتجدر الاشارة الى أن هذه المعاهدة العثمانية الفرنسية التي عقدت في عام ١٥٣٥ بين السلطان سليمان المشرع والملك فرانسوا الاول قد جددت بعد ذلك عدة مرات وأضيقت اليها أحكام جديدة في أعوام ١٥٦٩ ، ١٥٨١ ، ١٥٩٧ ، ١٦٠٤ ، ١٦٣٩ ، ١٦٤٠ . كما أصبحت هذه المعاهدة تجدد تلقائيا كلما ارتقى عرش الدولة العثمانية سلطان جديد . وقد أرسى هذا التقليد في اليوم الثامن والعشرين من شهر مايو عام ١٧٤٠ السلطان العثماني محمود الاول (١٧٣٠ - ١٧٥٤) اعترافا منه بفضل فرنسا حين تدخل في صيف عام ١٦٣٩ « الماركيز دي فيلينيف Marquis de Villeneuve السفير الفرنسي في بلغراد لانهاء حالة الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا . وكان من نتائج مساعيه الحميدة ابرام معاهدة بلغراد في اليوم الثامن عشر من سبتمبر عام ١٦٣٩ (٥٨) .

وتجدر الاشارة كذلك الى أن تلك المعاهدة العثمانية الفرنسية التي عقدت عام ١٥٣٥ قد نصت في مادتها الخامسة عشرة على دعوة ملك انجلترا وغيره الى الانضمام اليها والاستفادة من أحكامها ، بشرط أن يقوم ملك انجلترا بإبلاغ السلطان العثماني ، في خلال ثمانية شهور من تاريخ التوقيع على المعاهدة بتصدور تصديق الحكومة الانجليزية عليها . ويطلب اعتماد هذا التصديق اذ اراد السلطان سليمان المشرع وفرنسوا الاول ، تحويلها من معاهدة ثنائية الى معاهدة جماعية ، حتى تتحقق أكبر فائدة منها في

(٥٧) Hurewitz, J. C.: Diplomacy in the Near and Middle East, vol.I, pp. 1-5

(٥٨) عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : الدولة العثمانية دولة اسلامية منتدى عنيدا ج ٢ ، ص ٨٠٨ - ٧١٤

تنشيط الحركة التجارية في البحر المتوسط . بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء منذ مطلع القرن السادس عشر ، غير أن هذه الدعوة لم تجد استجابة من ملك إنجلترا ، وظلت السفن الإنجليزية التي تتردد على الموانئ العثمانية تبحر في الموانئ والمياه العثمانية تحت الأعلام الفرنسية ، طبقاً لأوامر الحكومة العثمانية . ثم ازداد عدد السفن الإنجليزية التي شق طريقها إلى موانئ الدولة العثمانية في الحوض الشرقي للبحر المتوسط منذ النصف الثاني من القرن السادس عشر . وقطعت إنجلترا إلى منافسة البنادقة والفرنسيين في هذه المنطقة ^(٥٩) ، وبذا ذلك واضحاً عندما تمكن أحد التجار الإنجليز وأسمه « أنطونيوس جنكشن Anthony Jenkinson من مقابلة السلطان سليمان المشرع عام ١٥٥٣ في حلب ، وهو يستعد للزحف على فارس آنذاك ، ونجح في الحصول على موافقة السلطان له على الاتجاه داخل ممتلكات الدولة العثمانية على قدم المساواة مع البنادقة والفرنسيين ، وعلى لا يدفع أكثر من الرسوم المقررة ^(٦٠) . على أن هذا الحادث الأول من نوعه لم يفتح لإنجلترا عهداً تجاريًا مهماً على الرغم من الامتيازات الواسعة التي منحها السلطان سليمان المشرع لذلك التاجر الإنجليزي ^(٦١) .

غير أن النشاط التجاري الإنجليزي سيزداد بعد ذلك بربع قرن تقريباً ، عندما استقبلت الحكومة العثمانية بعثة إنجليزية في عام ١٥٧٨ واستطاعت هذه البعثة أن تحقق نجاحاً كبيراً في وضع الحجر الأساس

Hoskins, H. L.: British Routes to India, p. 2-4.

(٥٩)

Hurewitz, J. C.: op. Cit., Vol. I, pp. 5-6.

(٦٠)

(٦١) زكي صالح (دكتور) : « جمل تاريخ العراق الدولي في العصر العثماني »

للتجارة الانجليزية في الدولة العثمانية بولاياتها المختلفة ومن بينها مصر بطبيعة الحال ، مما كان من شأنه تشويط الحركة التجارية في البحر المتوسط التي كان قد أضعفها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح منذ مطلع القرن السادس عشر . وكان من بين معالم هذا النجاح أن السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) أرسل رسالة مؤرخة في الخامس عشر من مارس عام ١٥٧٩ إلى الملكة إليزابيث الأولى ، وكان مما جاء فيها « إن البلاد العثمانية ستبقى دائمًا مفتوحة للتجار الانجليز ٠٠٠ وتحن (أى السلطان العثماني) سوق لا تقاوم عن تقديم المساعدة والمعونة لاي فرد منهم (أى من الانجليز) يبتغي تقدير صداقتنا واحساننا ومساعدتنا ، بل سند ارضاءهم جزءاً من واجبنا » (٢) .

على أن هذه الرسالة لم تكن مقنعة في نظر ملكة اجلترا ، لأنها لم تشتمل على تحديد موضوعات تتصل بتيسير ممارسة الرعایا الانجليز نشاطهم التجارى ، وتطلعت الملكة إلى عقد اتفاق يكون أوف بالفرض تخصيصاً وشمولًا . ومهدت له بفتح التجار العثمانيين امتيازات داخل بلادها تكون مماثلة لما يحصل عليه التجار الانجليز من امتيازات في بلاد الدولة العثمانية . وما أن تلقى السلطان مراد الثالث الرسالة الملكية حتى أصدر في شهر يونيو سنة ١٥٨٠ « براءة » تضمن للتجار الانجليز امتيازات واسعة النطاق . وكان مما جاء فيها على لسان السلطان « وعلى هذاقتنا نفتح جميع افراد شعبها ورعاياها حرية المجرى إلى امبراطوريتنا بأمن وسلم ، مع كل ما لديهم من متاجر وسلح بحراً في سفن كبيرة ومغيرة ، وموانئ في عربات ، دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ، ولهم أن يمارسوا

(٢) زكي صالح (دكتور) : المرجع السابق ، ص ١٤ .

عمليات البيع والشراء دون عائق ، وعليهم أن يراعوا عادات وأوامر بلادهم
(الإنجليزية)^(١٢) .

وكان من الطبيعي أن تلقي هذه المعاهدة معارضة عنيفة من جانب السفير الغرافي في استانبول حتى أنه سعى لدى السلطان لوقف تنفيذها . ونجحت مساعيه ولكن إلى أمد قصير . ففي العام التالي مباشرة صدر العقد التأسيسي الأول لإنشاء « شركة الليفانت The Levant Company »

في الحادي عشر من شهر سبتمبر عام ١٥٨١ ، وهي شركة إنجلizية مارست اختصاصات سياسية وت التجارية واسعة في شرق البحر المتوسط^(١٣) فهي التي كانت ترسيخ سفراً إنجلترا في استانبول وتدفع لهم مرتباتهم ، وكان جميع قناصل إنجلترا وكل موظفيها الدبلوماسيين في ممتلكات الدولة العثمانية يعودون مستخدمين في الشركة ويتقاضون منها مرتباتهم . وظل هذا التقليد سارياً أكثر من قرنين حتى سنة ١٨٠٣ . أما الاختصاصات التجارية لهذه الشركة فقد حصلت من الملكة إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا على حق احتكار الملاحة في المحيط الشرقي للبحر المتوسط . وكان نشاطها يكتنفاً في الاناضول وحلب والإسكندرية والإسكندرية وغيرهما من أساكيل الشام ومصر والداخل الغربي لشبه جزيرة الاناضول . ولم يتمتد نشاط الشركة بوضوح إلى العراق الذي كان أكثر تأثيراً بنشاط « شركة الهند الشرقية الإنجليزية The East India company » التي أنشأتها بريطانيا في ٣١ ديسمبر سنة ١٦٠٠^(١٤) . وفي سنة ١٥٨٣ عينت الحكومة الإنجليزية « وليسم هاربورن William Harborn » سفيراً لها في استانبول ومنحته سلطات مشتبعة على جميع التجارة الإنجليزية في ولايات الدولة العثمانية وخولته

Hurewitz, J. C.: op. Cit., Vol I., p. 7-9.

(١٢)

Epstein, M.: Early History of the Levant Company, p. 52.

(١٤)

Hoskins, H. L.: Op Cit., pp. 4. 5.

(١٥)

الختصارات واسعة في تعين القنصل . وغدا « هاربورن » سفيرا إلى جانب صفتة كممثل لشركة الليفانت . واستغل هاتين الصفتين في حمل السلطان مراد الثالث على تنفيذ معاهدة ١٥٨٠ وقدم مع أوراق اعتماده الهدايا للسلطان وكبار رجال الدولة ، وسرعان ما أثمرت جهوده . وعلى هذا تعتبر سنة ١٥٨٣ بداية التاريخ الفعلى والرسمى لتنفيذ معاهدات الامتيازات المتبادلة بين التجار الانجليز في املاك الدولة العثمانية والتجار العثمانيين في انجلترا . وفي سنة ١٦٠٤ حصلت الحكومة الانجليزية على موافقة السلطان أحمد الاول على أن تبحر السفن الانجليزية داخل المياه والموانئ العثمانية تحت الاعلام الانجليزية ، بينما كانت السفن الأجنبية — باستثناء سفن البنادقة — مضطربة إلى رفع العلم الفرنسي . وفي عام ١٦٤١ عقد الملك شارل الاول ملك انجلترا معاهدة مع السلطان ابراهيم الاول العثماني كفلت لشركة الليفانت حرية التجارة في جميع أنحاء الدولة العثمانية . ثم عقد سلطان محمد الرابع (١٦٤٨ - ١٦٨٧) معاهدة مع انجلترا في شهر سبتمبر سنة ١٦٧٥ جددت فيها الامتيازات التجارية التي سبق منها في معاهدات سابقة وأضيفت اليها ماد جديدة . وأطلق على المعاهدة الجديدة اسم « المعاهدة النهائية للامتيازات الامبراطورية العثمانية وانجلترا »

«Final Treaty of Capitulations btween the Ottoman Empire and England»
وهي تقع في خمس وسبعين مادة ، (٢٢) وتتمثل هذه المعاهدة المرحله الثانية المهمة في تاريخ الامتيازات التجارية البريطانية في الدولة العثمانية التي ضمنت للتجار الانجليزى حرية التجارة داخل البلاد العثمانية ، والسماح له بمرور بضائعه عبرها ، والتتمتع بما يكتسح حماية نفسه وماله . وقد ضمنت الامتيازات اسما مثل ذلك للتجار العثماني

فـالبلاد الانجليزية . غير أنـ الجانب العثماني لم يستند في الواقع سـوىـ ما يـأخذـهـ السـلطـانـ أوـ الـباـشـواـتـ منـ رسـومـ عـلـىـ الـبـضـائـعـ الـانـجـليـزـيـةـ تـبـلغـ عـادـةـ ثـلـاثـةـ فـيـ المـائـةـ مـنـ شـمـنـ الـبـيـضاـعـةـ .^(٦٧) وـلـمـ يـحـدـثـ بـعـدـ عـقـدـ مـعـاهـدـةـ عـامـ ١٦٧٥ـ شـيـءـ يـذـكـرـ حـتـىـ عـامـ ١٨٠٩ـ حـينـ نـجـحـتـ انـجـلـترـاـ فـيـ اـسـتـمـالـةـ الدـوـلـةـ العـثـمـانـيـةـ الـيـهـاـ بـعـدـ فـتـرـةـ جـفـاءـ بـيـنـهـمـ ،ـ كـمـ اـسـتـطـاعـتـ انـجـلـترـاـ فـيـ الـيـوـمـ الـخـامـسـ مـنـ شـمـنـ يـنـايـرـ سـنـةـ ١٨٠٩ـ أـنـ تـعـقـدـ مـعـ الدـوـلـةـ العـثـمـانـيـةـ مـعـاهـدـةـ الـدرـدنـيـلـ الـمعـروـفةـ بـاسـمـ «ـمـعـاهـدـةـ السـلـامـ وـالـتـجـارـةـ وـالـتـحـالـفـ السـرـيـ

Treaty of Peace, Commerce and Secret Alliance

ـ وـقـدـ جـاءـ

فـيـ مـادـتـهاـ الـرـابـعـةـ أـنـ جـمـيعـ الـأـمـتـيـازـاتـ الـتـىـ سـبـقـ تـقـرـيرـهـاـ فـيـ مـعـاهـدـةـ عـامـ ١٦٧٥ـ وـمـعـاهـدـاتـ السـابـقـةـ عـلـيـهـاـ تـخـلـ مـلـحوـظـةـ وـمـرـعـيـةـ كـانـ لـمـ يـطـرـأـ عـلـيـهـاـ تـعـطـيلـ .ـ وـقـدـ عـقـدـتـ الدـوـلـةـ العـثـمـانـيـةـ تـبـاعـاـ مـعـاهـدـاتـ أـخـرىـ عـلـىـ شـاـكـلـتـهـاـ

مـعـ عـدـدـ مـنـ الدـوـلـ الـأـورـبـيـةـ الـأـخـرىـ .^(٦٨)

وـاـذاـ كـانـتـ انـجـلـترـاـ قـدـ حـرـصـتـ عـلـىـ مـشـارـكـةـ الـبـنـادـقـ وـالـجـنـوـيـنـ وـالـفـرـنـسيـنـ وـغـيـرـهـمـ فـيـ الـتـجـارـةـ الـتـىـ تـصـلـ إـلـىـ مـوـانـىـ الـبـحـرـ الـمـوـسـطـ فـيـ الـقـرـنـ الـبـيـادـسـ عـشـرـ ،ـ وـنـجـحـتـ فـيـ ذـلـكـ إـلـىـ حدـ بـعـيدـ بـعـدـ تـأـسـيـسـهـاـ لـشـرـكـةـ الـلـيـفـانـتـ عـلـىـ وـجـهـ الـخـصـوصـ عـامـ ١٥٨١ـ ،ـ فـاـنـهـ لـمـ يـكـدـ هـذـاـ الـقـرـنـ يـوـشكـ عـلـىـ الـاـنـتـهـاءـ حـتـىـ أـصـبـحـتـ الـتـجـارـةـ الـتـىـ تـصـلـ إـلـىـ مـوـانـىـ ذـلـكـ الـبـحـرـ لـاـتـقـىـ بـحـاجـةـ السـوقـ الـانـجـليـزـيـةـ مـنـ الـبـضـائـعـ وـالـمـنـتـجـاتـ الـشـرـقـيـةـ .^(٦٩) وـلـهـذـاـ اـتـجـهـ الـبـرـيطـانـيـونـ إـلـىـ كـسـرـ اـحـتكـارـ الـبـرـتـغـالـيـنـ وـالـمـهـولـنـديـنـ لـلـتـجـارـةـ الـشـرـقـيـةـ فـيـ

(٦٧) زـكـيـ صـالـحـ (ـدـكـتوـرـ) :ـ الـمـرـجـعـ السـابـقـ ،ـ صـ ١٦ـ .

(٦٨) عبدـ العـزـيزـ مـحـمـدـ الشـنـاوـيـ (ـدـكـتوـرـ) :ـ الـدـوـلـةـ الـعـثـمـانـيـةـ دـوـلـةـ اـسـلامـيـةـ مـقـتـرـىـ عـدـيـهاـ جـ ٢ـ ،ـ صـ ٧١٥ـ ـ ٧١٩ـ .

Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 1,3.

(٦٩)

بحار الشرق فتحولت السفن البريطانية كذلك إلى طريق رأس الرجاء الصالح ونفذت إلى البحار الشرقي، ثم احتلتها المباشرة بالهند . وكان لإنجلترا دور كبير في تشريع طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن السادس عشر وفي أعقابه ، بالإضافة إلى نشاطها التجاري في البحر المتوسط ، وزاد ثقل بريطانيا في المحيط الهندي بشكل ملحوظ بعد تأسيسها « شركة الهند الشرقية الانجليزية The East India Company »

في ٣١ ديسمبر عام ١٦٠٠ (٧٠) . وعلى الرغم من ذلك فقد بدت رغبة إنجلترا واضحة في استخدام الطريق التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط بعد أن تبيّنت مميزاته في نهاية القرن الثامن عشر وخاصة عند تسيير الخط الملاحي البحري البخاري في مطلع القرن التاسع عشر (٧١) .

وهكذا نشطة الدبلوماسية المملوكية ثم العثمانية من جهة ، والدبلوماسية الأوروبية وخاصة لدى الدول ذات الصالح التجاري في البحر المتوسط من جهة أخرى كالبندقية وفرنسا وإنجلترا، خلال القرن السادس عشر وفي أعقابه ، لعقد المعاهدات التجارية لتشريع الحركة التجارية في البحر المتوسط — على النحو الذي أوضحته — بعد أن أضعفها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على أيدي البرتغاليين في مطلع القرن المذكور .

(ثالثاً) الآثار الاستراتيجي لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر :
كان لتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية

Fisher, H. A. L. : op., Cit., p. 602.

(٧٠)

Hoskins, H. L.: The Growth of British Interests in the Route to India,
Journal of Indian History, II, p. 167.

(٧١)

القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين على أيدي البرتغاليين أبرز الأثر من الناحية الاستراتيجية على مصر وعالم البحر المتوسط بعد أن حرما من هذه التجارة . ورغم الجهود الدبلوماسية التي بذلت من الاطراف المعنية المختلفة على النحو الذى عالجناه فيما سبق ، فإنها لم تتحقق الاهداف المرجوة منها من أجل العودة الى الطريق التقليدي عبر مصر وعالم البحر المتوسط . وقد استوجب هذا على أهالى البلاد الأصليين من جهة أولى ، وعلى المالكين من جهة ثانية ، ثم على العثمانيين من جهة ثالثة ، ضرورة اللجوء الى استخدام القوة ضد النشاط البرتغالي والنشاط الاسپانى المواكب له في العداء للمسلمين سواء في البحر المتوسط من جهة أو في البحار الشرقية من جهة أخرى . ولهذا فان النشاط الاستراتيجي سيبدو واضحا في هذين النطاقين وسوف يستمر من الناحية الزمنية طوال القرن السادس عشر الميلادى . وسوف يكون للاستراك العثمانية الفضل في تشكيل تحطيمية استراتيجية لحفظ على أمن العالم الاسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وعالم البحر الاحمر من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين في البحار الشرقية في نهاية القرن المذكور . وقد جاعت هذه التفطينة الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة في وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسى نتيجة لانقسام الصف الملوکى من جهة أولى ، وفشل المالكين في صد الغزو البرتغالي للبحار الشرقية من جهة ثانية ، هذا فضلا عن انهيار الاوضاع الاقتصادية من جهة ثالثة . ويعيد هذا الدور اكبر مكرمة للعثمانيين في جوهر علاقتهم بأشقائهم المسلمين في غالى البحرين المتوسط والاحمر في القرن السادس عشر .

الاثر الاستراتيجي في البحر المتوسط :

وفيما يتعلق بالاثر الاستراتيجي في البحر المتوسط فاننا نجد أن المغرب العربي قد تعرض في أثناء القرن الخامس عشر ومطلع القرن السادس عشر الميلاديين للهجمات الاسپانية المستمرة على سواحله والتي كانت توافق النشاط البرتغالي الذي حول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح آنذاك . اذ كانت خطة اسبانيا بعد أن تخلصت من آخر دولة اسلامية فيها وهي دولة بنى الاحمر في غرناطة في سنة ١٤٩٢ ، تقوم على غزو بلاد المغرب العربي ، هادفة بذلك الى تعقب المسلمين الذين هاجروا الى الموانى المغاربية ، نظراً للدور الفعال الذي قاموا به في تشويط حركة الجهاد في غرب البحر المتوسط وتنsem الغارات المستمرة على سواحل اسبانيا ، محاولين اثارة بقايا المسلمين هناك . وقد بدأت اسبانيا منذ عام (١٥٠٥ - ٥٩١١) بازالة حملاتها على سواحل المغرب الاوسط ، وبخاصة ميناء « المرسى الكبير » في غرب الجزائر ، ثم أخذ نطاق العمليات الاسپانية يتسع منذ عام ١٥٠٨ حين تولى قيادة الاساطيل الاسپانية « بدور نافارا Pedro Navarra » الذي تمكن من الاستيلاء على « حجر باديس » (٧٢) . ووهران وبجاية (٧٣) عام (١٥٠٩ - ٥٩١٥) ، كما تمكن من تدمير ميناء طرابلس في السنة التالية . وتحت هذا الضغط الاسپاني اضطررت

(٧٢) حجر باديس او مسخرة باديس وتقع في اقصى غرب الساحل الجزائري المطل على البحر المتوسط .

(٧٣) بجاية : مدينة ساحلية جزائرية تطل على البحر المتوسط وتقع في شرق الجزائر العاصمة وتبعد عنها بحوالى ٢٥٠ كيلو متر ، وكانت مركزا ثقافيا هاما في انفسور الوسطى .

دلس (٧٢) والجزائر إلى دفع جزية لاسبانيا لأن الزيانيين (٧٥) اثبتوا عجزهم عن حماية هذه الموانئ نتيجة للتفكك السياسي الذي أصاب دولتهم، وللثورات الداخلية التي نشبت ضدّهم كرد فعل على كثرة الفرائض التي فرضوها في تلك الفترة على الأهالي بحجة مواجهة الغزو الخارجي ، مما أثر تأثيرا سلبيا على الوضع الداخلي ، واضطربت السلطات الزيانية ذاتها إلى عقد صلح مع اسبانيا في سنة ١٥١٢م ، اعترفوا فيه باستيلاء اسبانيا على عدة موانئ في غرب الجزائر (٧٦) .

على أن حركة الجهاد البحري للمغاربة في الحوض الغربي للبحر المتوسط اشتد ساعدتها من جديد في العقد الثاني من القرن السادس عشر ولعبت قيادات جديدة من بين رؤساء البحر ، أصبح لها في تلك الفترة تأثيرها الواضح في بلاد المغرب العربي من أمثل بابا عروج وأخيه خير الدين باريباروسا ، وكانا من البحارة العثمانيين الذين شاركوا في عمليات الجهاد البحري ضد المحاولات الاسبانية العدوانية ، وكونوا قوة إسلامية جديدة كانت تمثل الخط الأول في علاقات العثمانيين بالمغرب العربي تلك العلاقات التي كانت تهدف إلى إنقاذ مسلمي لا دلس من اضطهاد الكاثوليك المتعصبين ، وحماية سواحل المغرب العربي من الغزو الاسباني . وقد تعددت خيوط علاقات العثمانيين بالمغرب العربي مع تحول هذه القوة إلى باشوية سياسية

(٧٤) ميناء دلس الجزائري يقع على بعد ٨٠ كيلو متر شرق ميناء الجزائر.

(٧٥) الزيانيون : نسبة إلى الدولة الزيانية التي ظهرت في القرن الثالث عشر بعد ضعف دولة الموحدين وكانت عاصمتها تلمسان ، وكانت في صراع دائم مع الدولة الحفصية في تونس والدولة المرinية في المغرب الأقصى ، ودخلت تحت سيطرة العثمانيين في عام ١٥١٧م .

(٧٦) شوقي عطالله الجمل (دكتور) : المغرب العربي الكبير في التحسر الحديث ، ص ٢٦-٣٥ .

في الجزائر ناهضت المعاقل الاسبانية على السواحل الجزائرية والتونسية والليبية ووصلت بحكمها في اتجاه المغرب الى تلمسان ، ووجده ، ودبدو ، وبادس (٢٧) .

وقد تمكّن عروج بالتعاون مع أخيه خير الدين ، من تكوين امرأة مستقلة في جزيرة جربة (٢٨) ، واتخذها قاعدة بحرية لنشاطهما منذ عام ١٥٠٤ م ، وجمعوا فيها الكثير من المقطوعين . وببدأ عروج منذ سنة ١٥١٠ في ممارسة نشاطه البحري من هذه القاعدة . وذاعت شهرته في الجهاد ضد غارات الاسبان ، حتى ان رجال القبائل في الجزائر طلبوا منه تقديم العون لهم لاسترداد ميناء بجاية من يد الاسبان ، فلما جابهم الى طلبيهم ونجح في استرداد هذا الميناء ، ثم نقل قاعدة نشاطه من جزيرة جربة الى ميناء جيجل في الجزائر ، وتمكن من صدهجوم اسباني على ميناء الجزائر وهدد الحصون التي اقامها الاسبان امام الساحل وشدد هجماته عليها ، وتمكن من بسط نفوذه على اقاليم المغرب الاوسط ، الاقليل تلو الاخر . وأصبحت السلطات القديمة بالضعف أمام سلطان عروج ، ونجح في سنة ١٥١٧ في مد نفوذه على « تلمسان » عاصمة بنى زيان . وقام عروج بعد أن نجح في القضاء على حكم بنى زيان ، بوضع حاميات في ميديا ومليانة (٢٩) ، وامتد نفوذه إلى حدود المغرب الاقصى . ولكن آخر حكام بنى زيان ، استتجد بأسپانيا لاسترداد عرشه الضائع ووجد الاسبان في هذا الاستتجاد فرصة لهم

(٢٧) ابراهيم شحاته حسن (دكتور) اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، تراثة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٩٤٧-١٥١٠) ، ص ١١٩ .

(٢٨) تقع جزيرة جربة في مواجهة ساحل تونس من ناحية الجنوب الشرقي المطل على البحر المتوسط وهي من أشهر المواقع السياحية التونسية حالياً لوقوعها التجغرافي الممتاز ، بينما تقع مدينة جيجل على ساحل الجزائر شرقى مدينة الجزائر بحوالى ٣٥ كيلومتر .

(٢٩) تقع ميديا جنوب مدينة الجزائر بحوالى ٨٨ كيلو متر ، بينما تقع مليانة غرب مدينة الجزائر بحوالى ١٣٠ كيلو متر .

للتدخل في شؤون الجزائر ، ووصلت حملة أسبانية الى سواحل الجزائر وتمكنت من التوغل في ارض الجزائر ومحاصرة تلمسان وأحدثت فوضى في داخلية البلاد أدت الى نشوب ثورة ضد حكم بابا عروج ، بل أن الامر انتهى بقتله سنة ١٥١٨^(٨٠) . وقد أثارت أعمال اسبانيا العدوانية ضد البلدان الغربية أبناء المغرب المقيمين بالاسكندرية آنذاك ، فقاموا بعمل عدائى ضد الاسپان المقيمين فيها ، وأحرقوا لهم خانا^(٨١) .

ولهذا لم يكن امام خير الدين بار باروستيا ، الذى خلف أخيه عروج ، من سبيل للسيطرة على الموقف ، سوى الاتصال بالدولة العثمانية ، القوى غدت القوة الاسلامية الكبرى السيطرة على مصر والشام والهزار في سنة ١٥١٧ ، فطلب خير الدين من السلطان سليم الاول مديّد العون له في جهاده ضد الخطر الاسپاني^(٨٢) . وقد أرسل له السلطان سليم في سنة ١٥١٨ ، ألفين من الجنود الانكشارية ، كما سمح له بتجنيد أبناء الاناضول . ويعتبر هذا الاتصال بين خير الدين والدولة العثمانية بداية انضمام المغرب الأوسط الى الدولة العثمانية . وقد أزعج هذا التقارب ، القيادات الغربية القديمة ، التي كانت قائمة في المناطق الغربية الأخرى ، خشية أن يقضى على ماتبقى لها من نفوذ وسلطان ، مما ضاعف من جهود خير الدين ، فكان عليه أن يواجه الخطر الاسپاني من ناحية ، وأن يتصدى للقوى الداخلية المعارضة من ناحية أخرى . خاصة وأن هذه القوى حاولت أن توحد جهودها مع جهود الاسپان للقضاء على قوة خير الدين ، الذي نجح في مجابهة هذه الاخطار

(٨٠) جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصوب الحديثة وهجوم الاستعمار من ٢٢-٤٣ .

(٨١) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ، ص ١٨ .

(٨٢) ملاح العقاد (دكتور) : المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة . ص ١٥-١٦ .

ووحد اقطار شمال افريقيا ، وأصبحت دولته بمثابة خط الدفاع الامامي للدولة العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط^(٨٣) . وقد منحه السلطان سليمان المشرع (١٥٢٠ - ١٥٦٦ م) لقب «بيلار باي افريقي»

Kapudan Pasa Beylerbey ثم من بعد لقب «قبودان باشا

وقد ازداد نفوذ الدولة العثمانية قوة في بلاد المغرب ، بعد أن تمكن مراد أغا في (١٣ شعبان ٩٥٨ هـ - ١٦ أغسطس ١٥٥١ م) من تخلص طرابلس الغرب من يد الاسپان ، وفرسان القدس يوحنا ، وأصبحت طرابلس قاعدة من قواعد الجهاد البحري في شمال افريقيا^(٨٤) .

تلك هي الصورة السياسية التي كان يمر بها المغرب الاسلامي والتي رجحت فيها كفة اسبانيا بعد احرازها النصر على المسلمين في المغرب في معركة «لييانتو» في سنة ١٥٧١ م . حيث عجزوا بعد هذه المعركة عن مد نفوذهم في الحوض الغربي للبحر المتوسط ، كما عجزوا عن تحرير الجيوب التي احتلتها اسبانيا والبرتغال على سواحل اقليم المغرب الاقصى^(٨٥) .
بل ان وهران في المغرب الاوسط بقيت تحت الحكم الاسباني حتى قرب نهاية القرن الثامن عشر . وقد حاولت اسبانيا بعد معركة «لييانتو» بعامين احتلال تونس واعادة حلقاتها المغاربة . غير أن المسلمين بقيادة «العلج على» تمكنوا في العام التالي من اخراج اسبانيا وحلقاتها^(٨٦) من الحصصتين وبصورة نهائية من تونس في سنة ١٥٧٤ م . وقد ظلت حالة عدم الاستقرار هذه تسود المغرب الاسلامي طوال القرن السادس عشر ، وحتى الاقاليم التي خضعت للحكم العثماني عانت كثيرا من النظم الادارية التي

(٨٣) عبد الرحمن بن محمد الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج ٣، ص ١١٣.

(٨٤) صلاح العقاد (دكتور) : المغرب العربي ، ص ٢٥-١٩ .

(٨٥) جلال يحيى (دكتور) المرجع السابق ، ص ٢٦-٢٣ .

خضعت لها مما أحياها إرتباكاً في أحوالها^(٨٦) .

ولاشك أن هذه الظروف التي كانت تمر بها بلدان المغرب الإسلامي أثرت على وضعية اقتصاد البلاد مما جعل الكثيرين من فئة التجار يتوجهون إلى بلدان الشرق العربي ويستقرن فيها لمارسة نشاطهم . وكذلك فعل الحرفيون وبعض القبائل المغربية فأصبحت هذه الظروف بمثابة عامل طرد من المغرب إلى الشرق ، قابلة من الجانب الآخر عامل تمثل في أقطار الشرق وبخاصة مصر التي وفرت لهؤلاء المهاجرين والوافدين إليها من المغاربة الحرية التامة لمارسة نشاطاتهم المختلفة سواء أكانت تجارية أم مهنية، فاتخذوها موطنًا لهم ، واستقروا في مدنها وقرابها^(٨٧) . وكان ذلك يحدث قبل نهاية العصر المملوكي في سنة ١٥١٧ ، وطوال العصر العثماني وخاصة في القرن السادس عشر ، ذلك لأن الوجود العثماني البحري في سواحل المغرب العربي المطلة على البحر المتوسط قد سبق الوجود العثماني في الشرق العربي ومصر ،^(٨٨) مما جعل المغاربة يشعرون بوحدة بلادهم مع بلاد المشرق العربي في ظل الحكم العثماني .

وبالاطلاع على أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية والذي يضم وثائق محكمة الامسكندرية الشرعية العائدة إلى منتصف القرن العاشر الهجري والسادس عشر الميلادي نتبين وجود العديد من الوثائق التي تشير إلى دور المغاربة في تنشيط الحركة التجارية والحرفية ، فضلاً عن الحياة

(٨٦) عبد الجليل التميمي (دكتور) الخلقة الدينية للصراع الأسپاني - العثماني عن الإيالات المغربية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (١٠-١١) ، ص (٥-١١) ، تونس يناير ١٩٧٨ .

(٨٧) عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : المغاربة في مصر في العصر العثماني ص ١٩ .

(٨٨) ابراهيم شحادة حسن (دكتور) : اطوار العلاقات المغربية العثمانية ، ص ١٣٨ .

الاجتماعية والثقافية في الموانئ والمدن الداخلية في مصر والشام وخاصة في مدينة الإسكندرية^(٦٩) كما تشير هذه الوثائق كذلك إلى وجود شاطط تجاري نسبي كانت تقوم به الجاليات الأوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط في الموانئ والمدن الداخلية في مصر والشام وخاصة في مدينة الإسكندرية آنذاك^(٧٠) . وقد خف هذا النشاط التجارى إلى حد كبير من حدة العزلة التي أحدثها تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح عن مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس عشر . مما يؤكد أن الحركة التجارية لم تتوقف تماماً ، بل أنها نشطت نسبياً استناداً إلى الطرق البرية الأخرى التي نشطت لتعوض المنطقة عما افتقدته ، والتي كانت رحلة الحج السنوية تشكل محوراً لحركتها الدائبة .

— الآثار الاستراتيجي في البحار الشرقية :

كان لتحول التجارة العالمية عن مصر وعالم البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح منذ وصول البرتغاليين إلى الهند في نهاية القرن الخامس عشر وأثناء القرن السادس عشر الميلادي ، أبلغ الآثار من الناحية الاستراتيجية على البحار الشرقية بوجه عام ، وعلى البحر الأحمر بوجه

(٦٩) انظر المجموعة الوثائقية الأولى الملحة بالبحث ومددها ثلاثة عشرة وثيقة ، أصولها محفوظة بарشيف الشهر العقاري بالإسكندرية وتخص محكمة الإسكندرية الشرعية بدقتر سجل مبانيات رقم (١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة ١٥٥٧هـ - ١٥٥٠م إلى ١٧ شعبان سنة ١٥٥٨هـ - ١٥٥١م ، ولم يسبق نشرها .

(٧٠) انظر المجموعة الوثائقية الثانية الملحة بالبحث وعددها سبع وثائق ، أصولها محفوظة بارشيف الشهر العقاري بالإسكندرية وتخص محكمة الإسكندرية الشرعية بدقتر سجل مبانيات رقم (١) وتعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة ١٥٥٧هـ - ١٥٥٠م إلى ١٧ شعبان سنة ١٥٥٨هـ - ١٥٥١م ، ولم يسبق نشرها .

خاص . وكانت دولة المماليك تشكل أكبر قوة إسلامية متواجدة في هذا البحر بحكم سيطرتها على مصر والizar في نهاية العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة . كما كانت من أكثر الدول تأثراً بأية متغيرات تحدث في هذا البحر ، كتحول التجارة العالمية عنه إلى طريق رأس الرجاء الصالح ، مما أدى إلى ضياع العوائد والرسوم الجمركية الضخمة التي كانت تجيئها الفزانة المملوكية في الموانئ التابعة لها والمطلة على البحر المذكور . ولهذا كان على الدولة المملوكية — لاعتبارات الأمنية والاقتصادية — أن تتصدى للبرتغاليين في البحار الشرقية عامة ، والبحر الأحمر بوجه خاص ، للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة ، خاصة بعد أن عجز الطاهريون في سواحل اليمن — التي شكلت خط المواجهة الأول مع البرتغاليين في أقصى جنوب الجزيرة العربية والبحر الأحمر — من جهة ، وكذلك السلطات الإسلامية على الساحل الغربي للهند من جهة أخرى ، عن مواجهة الخطر البرتغالي المتزايد في المحيط الهندي .

إذ استججد الأمراء الهنود على الساحل الغربي للهند أمثال سلطان «كجرات» والسامري حاكم «قاليقوط» بالسلطان الغوري ليعساهم في مواجهة الخطر البرتغالي بعد أن عجزوا عن مواجهته ، باعتبار دولتهما أقوى الملك الإسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة في الهند ، فضلاً عن امتلاكها للأسلحة النارية الحديثة المماثلة للأسلحة البرتغالية^(١) .

أما بالنسبة للطاهريين الذين كانوا يحكمون الجزء الساحلي من اليمن والذين كانوا يشكلون مع الإمامة الزيدية المترکزة في المضبة اليمنية ، الداعمتين اللتين قام عليهما النظام السياسي في اليمن في نهاية القرن الخامس عشر ،

(١) قطب الد بن التهرواني : البرق اليمني في الفتح العثماني ، مخلوطة ص ٤ (١) .

فقد واجهوا البرتغاليين الذين أضعفوا الامكانيات الاقتصادية لقائهم وجنوبى اليمن بعد تحويلهم للتجارة الشرقية الى طريق رأس الرجاء الصالح . وقد أكدوا بذلك الموقف الايجابى للشعب اليمنى في تصديهم للبرتغاليين بقدر ما كانت تسمح به امكاناتهم الذاتية في ذلك الحين . اذ استطاع السلطان عامر بن داود الطاهرى — رغم اضطراب أحوال سلطنته نتيجة الجمود التى بذلها من أجل توحيد اليمن تحت حكمه ، الى جانب ضعف ايراداته المالية نتيجة للحمار البرنگالى الذى حول طريق التجارة عن بلاده وأفقده الاموال الطائلة التى كانت تصل اليه من جمارك عدن قبل وصول البرتغاليين إلى الهند ^(٩٢) . أن يجهز حملة بحرية لحاربة البرتغاليين في مياه الهند في سنة ١٥٠٧م ، غير أن هذه الحملة كانت ضعيفة تعبير عن حقيقة ظروف السلطان عامر وامكاناته ، كما تعبير أيضاً عن عدم ادراكه لقوة الفسازى الجديد الذى جاء يغزو الشرق كله باسلحة حديثة فتاكة . اذ كان قوام الحملة أربع عشرة سفينة من سفن النقل العادية ، تحمل مستمائة مقاتل يمنى بالإضافة إلى بعض العلماء والفقهاء وطلبة العلم الذين تطوعوا للجهاد ضد البرتغاليين . وأبحرت هذه الحملة من ميناء عدن في ١١ مارس سنة ١٥٠٧ ، ولم تكن سوى فريسة سهلة للبرتغاليين على نحو ما يرجحه ، نظراً لأن المصادر اليمنية صمتت حينذاك عن ذكر أبناء تلك الحملة ، التي كانت أضعف كثيراً عن القيام بمهنتها الصعبة ^(٩٣) ولهذا فإن السلطان عيامر عجز عن ارسال حملة أخرى إلى الهند غضلاً عن حماية سواحله أمام هجمات البرتغاليين بين آونة وأخرى .

(٩٢) ابن الدبيع ، عبد الرحمن بن على محمد الشيبانى الزبيدى الشافعى :
الفضل المزبد على بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة ، ص ٤٣ب ،
٤٢ ب .

(٩٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثمانى الاول لليمن ١٥٣٨
— ١٦٣٥ م : ص ٥٨ — ٥٩ .

وفي ذلك الوقت كانت دولة المماليك في مصر والشام والجaz من أولى الدول التي تأثرت اقتصادياً بتحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح إذ أدى هذا التحول إلى ضياع العوائد والرسوم الضخمة التي كانت تجيئها الخزانة المملوكية من موانئ مصر والشام والجaz . وقد أبدى المماليك اهتماماً بالغاً بمحاربة البرتغاليين ووقف تحول التجارة إليهم . غير أنهم كانوا أضعف من مواجهة قوة دولة البرتغال البحرية الناشئة وأعجز عن القضاء عليها . ولهذا فقد استعن المماليك بالعثمانيين المسلمين الذين شاركواهم غيرتهم الدينية ،^(٩٢) وبالمندقية التي حرمت مثلهم من التجارة الشرقية التي كانت تقوم بتوزيعها في أسواق أوربا ، وذلك للقضاء على تلك المنافسة البرتغالية الخطيرة . وكان بعض أمراء الهند أمثال سلطان كجرات والسامري حاكم قالبيقوط^(٩٣) قد استجدوا بالسلطان الغوري ليعاونهم في مواجهة الخطر البرتغالي باعتبار دولته أقوى الممالك الإسلامية ذات المصالح الاقتصادية المباشرة في الهند ، فضلاً عن املاكتها للأسلحة النارية الحديثة المائمة للاسلحة البرتغالية^(٩٤) كما أرسلت المندقية سفيرها « فرانسوا تالدي » إلى القاهرة للفتاوى مع السلطان الغوري سراً في الوسائل الممكن اتباعها لمنع توسيع البرتغاليين التجاري في مياه الهند وذلك بناءً على تعليمات مجلس العشرة الصادرة في المندقية في ٢٤ مايو

(٩١) الموزعى . شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد : « كتاب الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان » مخطوطة ، ص ٦ .

(٩٥) المباري ، زين الدين المغربي : تحفة المجاهدين في بعض احوال البرتغاليين - ص ٤٠ .

(٩٦) قطب الدين النهرواني : البرق اليماني في الفتح العثماني ، مخطوطة ص ٤ (١) .

سنة ١٥٠٤^(٩٧) وقد أدى ذلك أيضاً إلى تشجيع السلطان الغوري على إرسال حملة بحرية إلى الهند لتعقب البرتغاليين ومحاولتهم طردتهم من البحر الشرقي وأعادة التجارة إلى طريقها التقليدي القديم عبر مصر والشام والبحر المتوسط . وقد حدث ذلك عندما وجه السلطان الغوري حملة بحرية يقودها الأمير حسين الكردي نائب جدة تحركت من القاهرة في ٤ نوفمبر سنة ١٥٠٥ عبر قنادل أوصلتها إلى السويس حيث أبحرت منها متوجهة إلى المحيط الهندي . وقد مرت الحملة بسوakin حيث استولت عليها وأنهامت بها بعض الاستحكامات ضمن برنامجها لتحسين سواحل البحر الأحمر قبل أن تتجه إلى الهند . ثم أبحرت الحملة تجاه الموانئ اليمنية فمرت بجيزان ثم بقمران ، واتجهت منها إلى مخا تم ووصلت إلى عدن حيث مكثت هناك لتنزود بالمؤن الازمة لها للقيام بمهمتها .

وقام الأمير حسين الكردي بإبلاغ والي عدن من قبل الطاهريين أن هدف الحملة هو التوجه إلى الهند لحاربة البرتغاليين . كما طلب منه أن يمد الجملة بالطعام والمؤن الازمة ، فسمح له الوالي بأن يأخذ من عدن كل ما يحتاج إليه^(٩٨) . وهذا يؤكد مرة ثانية أن اليمنيين وقفوا موقفاً ايجابياً في مواجهة البرتغاليين على نحو ما بدأ في تعاونهم الكامل مع القوات المملوكية المتوجهة لحاربهم .

(٩٧) نعيم زكي فهمي (دكتور) : المرجع السابق ، من ٢٨١-٢٣٧ . وقد نشر في ملحق كتابه مجموعة التعليمات التي أصدرها مجلس العشرة في البندقية للسفير المندوب «فرانسوا تالدي» المبعوث إلى السلطان الغوري بالقاهرة في ٢٤ مايو سنة ١٥٠٤ ، ونصوص بعض النظم التجارية الخاصة بتجارة البندقية في الإسكندرية ، حتى عقد المعاهدة بين السلطان سليم الأول العثماني وطلائفة البندقة في شفر الإسكندرية بعد منع العثمانيين لمصر بتاريخ ٢٢ من المحرم ١٩٢٢هـ - ٢١ من فبراير سنة ١٥١٧ ، من ٤٣٥ - ٤٣٦ .

(٩٨) ابن ايلاس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٨٥ .

وكان الانتصارات الحربية والتجارية المتواصلة للبرتغاليين حينذاك قد دفعتهم إلى اتخاذ خطوة أكثر إيجابية وهي إقامة حكومة استعمارية برتغالية في الهند فقد عين ملكهم في سنة ١٥٠٥ « فرانسيسخودا الميدا Francisco d'Almeida حاكما عاما للبرتغاليين في الهند كنائب لملك البرتغال ^(٩٩) ». وعمل « دالميدا » طوال أربع سنوات حتى سنة ١٥٠٩ على إقامة دعائم الحكم الاستعماري البرتغالي في ساحل ملبار ، وتوجيه الحملات الحربية إلى الجهات المختلفة لفتح مجالات التجارة أمام البرتغاليين في البحار الشرقية ^(١٠٠) .

وعندما وصلت الحملة الملكية إلى مياه الهند ، تمكنت من احراز نصر جزئي أمام الأسطول البرتغالي بعد وقت قليل من وصوله إلى « ديو ^(١١) » التي كانت أهم موانئ سلطنة « كجرات » . كما انتصر الأسطول الملكي على أسطول برتغالي مكون من ثمانى سفن ^(١٠١) . وذلك في خريف عام ١٥٠٨ م ، وكان سلطان كجرات يتعاون حينذاك مع المماليك . غير أن البرتغاليين سارعوا بقيادة « دا الميدا » نائب ملك البرتغال في الهند وهاجموا السفن الملكية ، وأحرزوا نصرا حاسما على المماليك في موقعة « ديو » ^(١٠٢) في اليوم الثاني من فبراير سنة ١٥٠٩ م . وقد تمكن البرتغاليون عقب هذا الانتصار من التسلط على البحار الشرقية لمدة قرن من الزمان على وجه التقريب ، رغم الجهد الذي بذلها أهالى البلاد الأصليين من جهة ، والمماليك والعثمانيون من جهة أخرى لطردهم من هذه البحار .

Stephens, H. M. Portugal, p. 195.

(٩٩)

Kammerer, A.: Op. Cit., Tome I. 155.

(١٠٠)

(١٠١) سعاد ماهر (دكتورة) : البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية ،

ص ٤٣٢ .

(١٠٢) ابن ايلس : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٩٦ .

(١٠٣) اسماعيل سرهنث : حقائق الاخبار عن دولة البحار ج ٢ ، ص ٤٦ .

وتجدر الاشارة الى السياسة التي اتبعها البرتغاليون لبسط نفوذهم في البحار الشرقية من جهة ، واحتكار التجارة الشرقية من جهة أخرى . فقد كان « دا الميدا » يتبع سياسة الاكتفاء بسيطرة البرتغاليين على البحار دون التوسيع في الاستيلاء على الواقع البريىة التي يمكن أن تكلفهم مالا يطيقونه ، مما جعله يتوجه إلى تقوية الاسطول البرتغالي (١٠٤) . لاحكام سيطرتهم على البحار . وعندما عين « ألفولنسو البوكييرك Albuquerque » نائباً لملك البرتغال في الهند بدلاً من « دا الميدا » عمل على احتلال المراكز البحرية الهامة واقامة الحصون القوية في جميع جهات المحيط الهندي لاحكام سيطرة البرتغاليين على مصادر التجارة ، وتدعم مرکزهم في تلك المناطق النائية عن البرتغال ، حتى بامروا آية ضربات من قبل الحكام الوطنيين ويضعوا حداً لها (١٠٥) .

وقد تمكن « البوكييرك » من السيطرة على البوابات البحرية الثلاث المؤصلة للمحيط الهندي وهي مضائق هرمز ، وباب المدب ، وملقا الواقع عند الطرف الجنوبي لشبه جزيرة الملایو (١٠٦) . وكان يحرص حينذاك على أن يثبت للهنود عدم وجود أية قوة يمكنهم أن ينتظروا مجئها إلى الهند لانقاذهم . كما كان البرتغاليون قد وجهوا أسطولاً مكوناً من أربعين سفينة بقيادة « البوكييرك » وزميله « ترستودي كانها Tresto de Canha » لبسه نفوذهم على الساحل الشرقي لأفريقيا في سنة ١٥٠٢ . وقد استولى هذا الاسطول على لامو وبراوا ولم تأت سنة ١٥٠٩ إلا وكانت جميع المراكز الاسلامية على هذا الساحل من « سوفالا » جنوباً إلى « براوا » شمالاً

Kammerer, A.: Op Cit., p. 156.

(١٠٤)

Wilson, A. Op. Cit., p. 112.

(١٠٥)

Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, pp. 53, 60.

(١٠٦)

قد خضعت للبرتغاليين . (١٠٧) كما تمكن « البوكييرك » في سنة ١٥٠٧ من السيطرة على جزيرة « سقطرى » المواجهة للساحل الجنوبي لشبه الجزيرة العربية وتوسط المسافة تقريباً بين مدخل البحر الأحمر والخليج العربي (١٠٨) . وكان موقع الجزيرة نموذجياً بالنسبة لتحقيق أهداف البرتغاليين بما جعل « البوكييرك » يقرر إنشاء حامية فيها مع تشييد حصن برتغالي ، فضلاً عن إقامة دير لطائفة الفرنسيسكان لنشر الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي (١٠٩) . غير أن البرتغاليين غادروا الجزيرة في سنة ١٥١١ نظراً لعدم توفر مقومات الاستقرار فيها ، مما أدى إلى ضعف استفادتهم منها حربياً وتجارياً .

وفي عهود « البوكييرك » تم أول اتصال مباشر بين الحبشة والبرتغال في سنة ١٥٠٩ . وقد أجبرت الحبشة حينذاك على التعاون مع البرتغاليين لإعلان الحرب العامة على المسلمين وعلى الدولة المملوكية التي كانت تتربّع عليهم بوجه خاص . وقد سعى البرتغاليون إلى عقد تحالف مع الحبشة المسيحية لتطويق العالم الإسلامي من الجنوب وتوفير مراكز بحرية لهم في داخل البحر الأحمر لمواجة الحجاز ومصر واليمن في ذلك الحين (١١٠) وكان يهدف « البوكييرك » إلى السيطرة على عدن التي كانت تعتبر أكبر مستودع تجاري في جنوب البحر الأحمر ، وذلك لكي يتمكن من الاستفادة من موقعها الممتاز المحكم في مضيق باب المندب لاغلاق البحر الأحمر ، وتأمين طريق البرتغال الجديد حول رأس الرجاء الصالح . وللهذا قام

(١٠٧) Serjeant, R. B.: Op. Cit., p. 14.

(١٠٨) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي ، ص ١٤ .

Serjeant, R. B. : Op. Cit., p. 43.

Alvarez, F. : Op. Cit., pp. 390, 392.

(١٠٩)

(١١٠)

«البوكيرك» بمهاجمة عدن في ٢٤ مارس سنة ١٥١٣ ثم نقل معاركه البحرية بعد ذلك إلى داخل البحر الأحمر.

وكان يحكم عدن من قبل الطاهريين الأمير مرجان الذي اضطرب لظهور البرتغاليين وسارع بطلب النجدة من السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان الدولة الطاهرية بجنوبى اليمن . ونظراً لأنشغال هذا السلطان بحروبه مع الإمام الزيدى للسيطرة على صنعاء ، فقد تأخر في إرسال النجدة لحاكم عدن . وقد أعتمد آهالى عدن على أنفسهم وعلى حصانة مدinetهم الطبيعية في صد العداون البرتغالي واستبسلوا في دفاعهم ، حتى اضطرب البرتغاليون إلى الانسحاب إلى سفنهم بعد أن تركوا خلفهم بعض قتلامهم . وقد انتقم البرتغاليون لأنفسهم بالقيام بأعمال تخريبية فأحرقوا حوالي أربعين سفينة كانت راسية بميناء عدن بعد أن استولوا على ما تحمله من بضائع (١١١) . بل انهم اتجهوا بعد ذلك إلى مضيق باب المندب حيث نفذوا إلى داخل البحر الأحمر وقد مرروا بالموانئ اليمنية المطلة على البحر الأحمر حتى وصلوا إلى جزيرة قمران الواقية أمام ميناء الصليف شمالى العديدة . وقد استولوا على الجزيرة في مطلع شهر أبريل سنة ١٥١٣ ، وقاموا بأعمال تخريبية مثل ردم الإبار حتى لا تتتفتح بالجزيرة أية قوة معادية ، خاصة وأنها كانت محطة بحرية هامة بين موانئ اليمن والحجاز (١١٢) .

وقد اتجه «البوكيرك» بعد ذلك نحو تنفيذ مشروعه الكبير بمهاجمة جدة . غير أن الرياح بددت أحلامه وأضطرته للعودة إلى قمران حيث بقى فيها مدة شهرين واصل أثناءها أعماله التخريبية في موانئ البحر الأحمر . فضرب ميناء زيلع بالمدفع وأحرق السفن الرئيسية هناك . ثم

(١١١) ابن الدبيع : الفضل المزید على بغية المستقى في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة من ٥٠ (ب) ، ٥١ (١) .

(١١٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٧٢ - ٧٤ .

عاد ثانية الى عدن وواصل ضريها بالمدافع مدة خمسة عشر يوما حتى غادرها الى الهند في اليوم الرابع من أغسطس سنة ١٥١٣ وبذلك فشل «البوكيرك» في الوصول الى جدة أو السيطرة على عدن ، وان كان قد نجح في أن يرسم لخلفائه خطة غزو هذا البحر الى أقصى شماله عن طريق المعلومات التي جمعها عن طبيعة البحر الاحمر ومراكيزه المختلفة وحركة التجارة فيه . هذا فضلا عن معرفة البرتغاليين بامكانيات القوى المسيطرة على هذا البحر حتى يمكنهم التغلب عليها أو استقطاب بعضها الى جانبهم ، كما هو الحال مع امبراطورية الجشة في ذلك الحين ^(١١٦) .

على أن أهم هذه القوى التي يخشى بها البرتغاليون كانت تتمثل في الدولة المملوکية التي زاد اهتمامها بمواجهة هذا الخطر بعد توغل البرتغاليين في داخل البحر الاحمر . وكان السلطان الغوري يوجه كل عناء لاعداد أساطيل بحري ثان في ميناء السويس لخوض معركة المصير التي سيقترب على نجاحها حل أزمته الاقتصادية ، وبالتالي مواجهة الاضطرابات الداخلية . هذا فضلا عن اعداد الاساطيل القوية للدفاع عن سواحله الشمالية المطلة على البحر المتوسط والتي كانت تهددها آنذاك هجمات « فرسان القدس يوحنا » المقيمين في جزيرة رودس . من جهة ، الى جانب تأmer البنادقة الذين حالفوه بالامس لمواجهة الخطر البرتغالي الذي حرّمهم من التجارة الشرقية التي كانوا يقومون بتوزيعها في أوروبا من جهة أخرى . وكان عجز الغوري عن توجيه ضربة قاضية للبرتغاليين قد شجع البداية على التحالف مع عدوه الشاه اسماعيل المفروي في فارس لاحياء طريق التجارة القرقية عمر أراضي فارس والعراق الى موانئ الشام المطلة على البحر المتوسط بعد أن

يهاجم الصفوی الملاليک من جهة العراق ويهاجم البنادقة من جهة البحر المتوسط^(١٠٤) .

وعلى أن موقف الامراء الهندو المسلمين ازاء السلطان الغورى كان على النقيض من الموقف الذى اتخذه البنادقة ازاءه ، اذ ظل هؤلاء الامراء يشجعونه على ارسال حملة بحرية الى الهند للقضاء على النفوذ البرتغالى الذى اشتدت وطأته هناك بعد انتصار البرتغاليين فى موقعة « ديو » في سنة ١٥٠٩ . وقد أرسل الغورى مندوبيا من بينه اليهم ليعدهم بارسال حملة أخرى ويطلب اليهم الاستمرار فى التعاون معه حتى يتحقق النصر^(١٠٥) . وقد تم أخيرا اعداد حملة بحرية جديدة في شهر اغسطس سنة ١٥١٥ القو عرفت حينذاك بحملة الهند^(١٠٦) ، وعيّن الرئيس سليمان العثماني قائدا للاسطول على أن يتولى قيادة الحملة الامير حسين الكردى نائب جنـة بمجرد وصولها الى هناك^(١٠٧) .

غير أنه لم يقدر لهذه الحملة أن تصل إلى هدفها النهائي في الهند وأجبرتها الظروف التي واجهتها أمام السواحل اليمنية بالإضافة إلى ظروف الأخرى على انتوقف عند عدن . وكان توغل البرتغاليين إلى داخل البحر الاحمر في سنة ١٥١٣ قد فرض على الملاليک أن يتخذوا سياسة دفاعية قوية

(١٠٤) ابن ایاس : المصدر السابق ، ج) ، ص ٢٠٥،١٩٦ .

(١٠٥) ابن ایاس : نفس المصدر ، ج) ، ص ١٨٥ .

(١٠٦) ابن ایاس : نفس المصدر ، ج ص ٢٧٧ .

(١٠٧) أنسد الغورى قيادة هذا الاسطول فيما بين السويس وجدة إلى الرئيس سليمان الرومى تقدیرا للمعونة العثمانية التي وصلت إليه ، ويقول وجيه الدين الشيبانى في كتابه « قرة العيون في تاريخ اليمن المبیون » أن سليمان الرومى هو أمير صاحب الروم ابن عثمان المسئى سليم وكان قد بعثه في عسكر كثير إلى صاحب مصر قونصوه الغورى اعانته له على قتال الانجنج الذين ظلموا في البحر في طريق الهند من ١٥٥ .

في البحر الاحمر قبل التوجه إلى الهند . فقد اهتم المماليك بتحصين ميناء
بيده تحت اشراف حسين الكردي ، كما قام هذا الامير باحتلال زيلع ، هذا
بالاضافة الى أن المماليك كان لهم نوع من السيادة في ميناء سواكن
باليمن . وبذلك لم يبق أمام المماليك الا اقامة القواعد البحرية على
السواحل اليمنية وخاصة في عدن وذلك لتحقيق غرضين ، الاول اغلاق
البحر الاحمر أمام الغزو البرتغالي ، أما الثاني فهو اتخاذ هذا الميناء المهم
قاعدة لنشاط المماليك البحري في المحيط الهندي .

وتتجدر الاشارة هنا الى أن السلطان عامر بن عبد الوهاب سلطان
الدولة الطاهرية في جنوب اليمن قد استنجد بالمماليك بعد هجوم «البوكيرك»
على عدن في سنة ١٥١٣ ، كما وافق على أن يفيهم السلطان الغوري قواعد
بحرية على السواحل اليمنية لواجهة أي عدوan حديد من قبل البرتغاليين
ولتعقبهم في المحيط الهندي وعندما فشل هجوم البرتغاليين على عدن دون
آية مساعدات خارجية ، وتأخر وصول الاسطول المملوكي إلى اليمن .
تراجع السلطان عامر عن الوفاء بوعده باقامة قواعد بحرية مملوكية على
سواحله بعد أن رأى أن الخطر قد زال ، وحرما منه على استقلال بلاده
وتقاديا لاحتلال تعرض شعبه لسيطرة قوى دخليه حتى ولو كانت ترتبطه
بهم رابطة العقيدة والنضال المشترك .

غير أن هذا التراجع من قبل السلطان عامر بن عبد الوهاب الذي حدث
بناء على دوافع وطنية ، لم يقابل من الامير حسين الكردي — الذي كان
يرى بوضوح استفحال خطر البرتغاليين — الا بمهاجمة السواحل اليمنية
بالغة (١١٨) . ومن هنا توالت الاحداث سريعة ومتقدمة ، فقد نزل المماليك

Ross, E. D.: The Portuguese in India and Arabia between 1507 & 1517;
Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921, p.560.
Serjeant, R. E.: Op. Cit., p. 170. (١١٨)

إلى جزيرة قمران ، وشرعوا في بناء سور حول الجزيرة لتخفيتها وذلكر طبقاً لمخططهم العام في البحر الأحمر باقامة قواعد بحرية في جنوبه لاغلاقه في وجه البحرية البرتغالية . وهذا أمر السلطان عامر ولاته في الموانئ اليمنية بمنع وصول الطعام إلى الماليك في جزيرة قمران لزحزحتهم من هناك . فقام الماليك بضرب ميناء « الحديدة » بالمدافع عندما أمر حاكمه « بمحر نثلاث سفن » كانت قادمة من زيلع من مواصله رحلتها إلى قمران ونقدر شحنتها من الأطعمة إلى الساحل . وقد نزل الماليك إلى الساحل بعد قرار حاكم الحديد وأخذوا ما يلزمهم من طعام ، كما حملوا معهم بعض الأخشاب والأدوات اللازمة لبناء سور حول قمران لتخفيتها ضد أي مجموع (١١٩) .

على أن بعض العناصر اليمنية المنافسة للسلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري قامت بالاتصال بالماليك وشجعتهم على التزول إلى الساحل اليمني والقضاء على حكم هذا السلطان . وكان الإمام شرف الدين الذي الذي تولى الإمامة الزيدية في سنة ١٥٠٦ على رأس هذه العناصر . كما كان أشراف « جيزان » على اتصال سابق بالماليك ليستعينوا بهم في التخلص من السلطان عامر لتحقيق أطماعهم في بلاد اليمن . هذا بالإضافة إلى بعض السخطين من أهالي تهامه وجنوبى اليمن الذين أرادوا أن يضعوا حدًا لحكم هذا السلطان حتى يتخلصوا من دفع الخراج إليه (١٢٠) .

وقد استفاد الماليك من كل هذه العناصر ونجحوا في الاستيلاء على بعض المدن التهامية ومن بينها زبيد في ٢١ يونيو سنة ١٥١٦ وعيّنوا الأمير

(١١٩) ابن الدبيع : الفضل المزید على بغية المستفید في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطه ، ص ٥٣ ب .

(١٢٠) ابن الدبيع : قرة العيون في أخبار اليمن الميون مخطوطة ، ص ١٥٢ (١) — ١٥٢ (١) .

«برسبي» حاكما عليها وقادها الماليك في منطقة تهامة . نم أبحر اسطولهم بعد ذلك بقيادة «حسين الكردي» حيث توجه إلى زيلع واستولى عليها . وأخيراً اتّه إلى عدن فوصل إليها في ١٢ أغسطس سنة ١٥١٦ حيث نمكِن الماليك من الدخول إلى الميناء وانزال بعض جنودهم ومعداتهم إلى الساحل . وقد استتبّلت عدن في الدفاع عن نفسها معتمدة على حصانتها الطبيعية واحاطة الهمال بها من كل جانب حتى تمكّنت من ردّ القوات المملوكيَّة عنها . غير أن الماليك عاودوا الكرونة من جديد عندما انضم إليهم سلمان الرومي الذي كان يطارد بعض السفن اليمينية المتوجهة إلى الهند ولكن هجومه باه بالفشل . وفي ذلك الوقت وصلت نجدة طاهيرية إلى عدن مما اضطر الماليك إلى مغادرتها في ١٩ أغسطس سنة ١٥١٦ دون أن يحققوا أهدافهم ^(١٢١) . وبذلك ظلت عدن في أيدي الطاهريين حتى استولى عليها الاتراك العثمانيون في سنة ١٥٣٨ .

ونظراً لفشل الماليك في السيطرة على عدن في سنة ١٥١٦ فانهم قرروا تأجيل ذهابهم إلى الهند حتى يضمنوا حماية البحر الأحمر وتأمين خط رجعتهم . كما قرروا أيضاً أن يتّخذوا سواحل تهامة اليمينية خط دفاع أول عن البحر الأحمر ، على أن تكون جدة خط الدفاع الثاني . ولهذا اتبّع حسين الكردي وسلمان الرومي إلى جدة لتركيز الدفاع بها بدلاً من عدن حتى يتحمّلوا الفرصة للهجوم عليها من جديد غير أن سقوط الدولة المملوكيَّة في يد السلطان سليم الأول (١٥١٦ - ١٥٢٠) الذي دخل مصر في سنة ١٥١٧ أدى إلى مسارعة أشراف مكة بالدخول في طاعة العثمانيين ، كما قتلوا حسين الكردي غرقاً أمام ميناء جدة بعد أن أوهموه باستدعاء السلطان

— — —
* (١٢١) ابن النبيع : الفضل المزید على بغية المستقى في أخبار مدينة زبيد ، من ٥٤ ب .

سليم له ؛ (١٢٢) وذلك انتقاما منه لاعماله القاسية أثناء ولادته لمجده . على أن حسين الكردي يرجع له الفضل في اقامة التحصينات التي صدت الهجوم البرتغالي الكبير على مكة في سنة ١٥١٧ باعتراف البرتغاليين أنفسهم . كما قام سلمان الرومي بعد أن حد هذا الهجوم بتعقب البرتغاليين أثناء تقهقرهم من البحر الأحمر واستولى على أحدي سفنهم وأسر بحارتها عندما اتجهت إلى ميناء اللحية اليمني للحصول على المؤن الازمة (١٢٣) . ولاشك أن خطة الماليك واستراتيجيتهم في البحر الأحمر التي كانت ترتكز على تدعيم سيطرتهم في جهات هذا البحر ، واتخاذ عدن قاعدة لهم في جنوبه ، هي نفس الخطة والاستراتيجية التي اتبعها العثمانيون فيما بعد قبل أن يرسلوا حملتهم الكبيرة إلى الهند في سنة ١٥٣٨ (١٢٤) . وتأكد الخطتان المملوكية والعثمانية أهمية عدن البارزة وموقعها الاستراتيجي الهام كقاعدة للدفاع عن منطقة البحر الأحمر بأكملها ضد أي خطر تتعرض له المنطقة وخاصة من ناحية الجنوب .

على أن موقف الماليك الموجودين داخل اليمن والذين استقروا في زبيد تحت قيادة الأمير « برباي » فقد كان من الطبيعي أن ينشأ صدام بينهم وبين الطاهريين بزعامة السلطان عامر بن عبد الوهاب . وقد ظل السلطان عامر لا يعترف بنفوذ الماليك في تهامة حتى قدر له أن يقتل وهو يقاتلهم على مقربة من صنعاء في اليوم الخامس عشر من مايو سنة ١٥١٧ واستولى الماليك على صنعاء (١٢٥) . وهكذا انتهى حكم آخر سلاطين

(١٢٢) قطب الدين النهرواني : الاعلام باعلام بلد الله الحرام ، ص ١٢٨ .

Sergeant, R. E. : Op. Cit., p. 170.

(١٢٣)

(١٢٤) السيد مصطفى سالم : المصدر السابق ، ص ٨٩ .

(١٢٥) يحيى بن الحسين : أبناء إبناء الزمن في تاريخ اليمن ، مخطوطه ،

ص ١٦ (١) .

آل طاهر الذي تمكّن من توحيد معظم أجزاء اليمن حتى امتد حكمه من صعدة وجيزان في الشمال إلى عدن وحضرموت في الجنوب . وقد انقلب ميزان القوى في اليمن بعد ذلك ليصبح في أيدي الأئمة الزيديين الذين عاصروا — فيما بعد — وصول الاتراك العثمانيين إلى اليمن بعد أن ورثوا الحكم الملوكي في مصر والشام والهجاز بكل مشكلاته ، وفي مقدمة هذه المشكلات مواجهة المنافسة البرتغالية في البحر الشرقي في ذلك الحين والحيولة دون سيطرة البرتغاليين على منطقة البحر الأحمر ومحاولة إعادة تدفق التجارة العالمية عبر طريقها التقليدي القديم . وتتجدر الاشارة إلى أن الماليك بعد سيطرتهم على صنعاء اصطدموا بالأمام الزيدى شرف الدين الذي رفض التوجه إلى صنعاء لمقابلة قائدتهم ، كما رفض عقد أي اتفاق معهم . وكان اصطدام الأمام — حليف الامس — بالماليك أمرا متوقعا ، إذ أنه لم يطلب منهم إمداده ببعض الجنود والسلاح إلا لتحقيق أغراضه الخاصة ومصالحه في اليمن ، وليس لكي يستأثروا بالسلط على البلاد لأنفسهم ، خاصة بعد أن سيطروا على صنعاء ، الامر الذي تعارض تماما مع تطلعاته وأماليه . وقد تقدم الماليك لحاصرة الأمام شرف الدين في « ثلاثة » بعد أن فشلت محاولاتهم للاتفاق معه . وقد ظلوا يحاصرون مدينة « ثلاثة » حتى وصلهم نبأ سقوط دولتهم الملوκية على أيدي العثمانيين . وهذا رفع الماليك حصارهم عن « ثلاثة » وعادوا إلى صنعاء في اليوم الخامس من يونيو سنة ١٥١٧ ، حيث أعلن قائدتهم الأمير « اسكندر » خضوع الماليك في اليمن السيادة العثمانية (١) . كما فضل هذا الأمير ترك صنعاء والعودة إلى زبيد لقريرها من الساحل فوصل إليها في ١٩ يوليه سنة ١٥١٧ ، بعد أن

(١) عيسى بن الجف الله : روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن والفتور ، مخطوطة ، ج ١ ، من ٦٣ (١) .

واجهت الحملة في طريقها اعتداءات كثيرة من قبل القبائل اليمنية (١٢٧) . وهذا يوضح مدى الضعف الذي حل بالماليك في اليمن بعد أن هزمت دولتهم على يد العثمانيين .

أما بالنسبة للبرتغاليين فقد ازداد خطرهم بعد وفاة «البوكيرك» في شهر ديسمبر سنة ١٥١٥ ، وعين «لوبوسوريز» نائباً لملك البرتغال في الهند (١٢٨) . وقد تحددت خطة البرتغاليين في القضاء على القوة المملوكية في البحر الأحمر وأغلاقه في وجه السفن العربية ، كما أنهم تحالفوا مع الحبشة لإعلان الحرب المشتركة على القوى الإسلامية في ذلك المحيط . وقد رکز البرتغاليون هجومهم على جده التي أصبحت قاعدة الماليك للدفاع عن البحر الأحمر بعد فشلهم في الاستيلاء على عدن في سنة ١٥١٦ . ولهذا فإن «لوبو سوريز» لم يهاجم عدن عند وصوله إليها على رأس حملة برتغالية ، بل أنه طلب من وإليها أن يمده بالمؤن الازمة للحملة وببعض المرشدين البحريين لتوصيلها إلى جدة وذلك في سنة ١٥١٧ . وأمام هذه القوة البرتغالية أخسر الأمير مرجان حاكم عدن أن يلبي مطالب البرتغاليين حتى لا يحتلوا عدن . وهذا ما دفعه إلى عدم اظهار عداوته للبرتغاليين حتى يتقوى شرهم ، ولم يكن هذا الموقف تخاذلاً من قبله بدليل أنه قام اثناء وجود الحملة في داخل البحر الأحمر بعمل كافة الاستعدادات الممكنة للدفاع عن عدن حتى لا يفاجأ بهجوم البرتغاليين عليها وهم في طريق عودتهم إلى الهند . كما أنه جدد استعداداته للمرة الثانية عندما علم بوجود حملة برتغالية جديدة على مقربة من عدن في سنة ١٥٢٠ . على أن الحملة البرتغالية

(١٢٧) ابن الدبيع : الفضل المزید على بغية المستقىد في أخبار مدينة زبيد ، مخطوطة من ٥٥ ب .

الاولى فشلت أمام جده بفضل التحصينات التي أقامها المماليك هناك، ونتيجة للجهود التي بذلها سلمان الرومي الذي طارد السفن البرتغالية بعد وصولها إلى جزيرة قمران وتتبعها في جنوبى البحر الاحمر حتى وصلت إلى عدن ثم سارعت بمعادرها إلى مياه الهند .

وقد واصل البرتغاليون تنفيذ خططهم في البحر الاحمر على نحو مابدا في الحملة البرتغالية التي وصلت إلى مدخل هذا البحر في سنة ١٥٢٠ والتي ركزت اهتمامها على مهاجمة جدة على وجه الخصوص ، هذا فضلاً عن انزال أول بعثة دبلوماسية برتغالية إلى السواحل الحبشية . وقد عاد البرتغاليون إلى الاهتمام بعدن بعد أن فشلوا في الوصول إلى جدة نظراً لمعاكسة الرياح لهم من جهة ، وجود حشود كثيرة فيها من جهة أخرى ، مما جعلهم يخشون مهاجمتها . ولهذا رأوا من الأفضل لهم أن يسيطروا على عدن حتى لا تقع في قبضة العثمانيين . وكان الأمير مرجان حاكم عدن قد أراد أن يقوى جانبه حينذاك بالاتصال بالأتراك العثمانيين . عقام باعداد خطاب طويل على لسان السلطان عامر بن عبد الوهاب الطاهري الذي كان قد قتل أثناء صراعه مع المماليك ، موقع عليه من قبل بعض الفقهاء والتجار في عدن يؤكدون ماجاء به ، ووجهه إلى السلطان العثماني سليم الأول ، واستنكر فيه من أعمال حسين الكردي وسلمان الرومي أمام عدن ، ومن تصرفات المماليك في اليمن ، كما أوضح الأسباب التي دفعته لمهاجمة البرتغاليين حتى لا يعرض عدن للخطر (١٢٩) .

على أن البرتغاليين قد واصلوا ارسال حملاتهم البحرية سنوياً إلى البحر الاحمر لمهاجمة ميناء جدة دون جدوى ، كما هاجموا ميناء «الشحر»

(١٢٩) بامخرمة : أبو الطيب عبد الله بن أحمد بن على : قسلادة النهر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوطة ، ج ٣ ، ق ٢ ، ص ١٢٠٦-١٢٠٥ .

اليمني ونبوه في سنة ١٥٢٣ أثناء توجههم إلى ميناء مصوع لتنسيق التعاون بينهم وبين الأحباش ، (١٣٠) بل أن البرتغاليين وجهوا اسطولاً بقيادة « دى سلفيرا » التي عدن من جديد وأجبروا حاكمها – الذي خلف الامير مرجان بعد وفاته في سنة ١٥٢١ – على عقد معاهدة معهم نصت على أن تدفع عدن جزية سنوية للبرتغاليين ، وعلى أن نفتح ميناءها للسفن البرتغالية (١٣١) . غير أن نائب ملك البرتغال في الهند وهو القائد البحري التسهير « فاسكوداجاما » رفض إبرام هذه المعاهدة لأنه كان يؤمن بضرورة بسط سيطرة البرتغاليين الكاملة على المراكز التجارية الهامة . وقد أدى ذلك إلى قيام حملة برتغالية في سنة ١٥٢٥ بضرب عدن بالمدافع وهي في طريقها إلى مصوع ، ولكنها لم تتحقق أى هدف للبرتغاليين في ذلك الحين . وهذا ما جعل البرتغاليين يفضلون أخيراً عقد معاهدة جديدة مع حاكم عدن وقلم « دى سلفيرا » بفرض هذه المعاهدة على حاكم عدن بالقوة في شهر فبراير سنة ١٥٣٠ . ونصت المعاهدة على اعتراف عدن بسيادة البرتغاليين عليها ويدفع الجزية السنوية اليهم ، وذلك نظير اعتراف البرتغاليين بحرية الملاحة لسكان عدن ولكن بشرط عدم توجههم إلى جدة (١٣٢) ، ولكن يضمن البرتغاليون تنفيذ هذه المعاهدة تركوا في ميناء عدن أحدى سفنهم وقوة قوامها أربعين برتغاليياً ليشرفوا على الميناء وعلى ايراداته المالية (١٣٣) .

وتتجدر الآثار إلى أن موقف حاكم عدن إزاء البرتغاليين في ذلك الحين – الذي بدا في اضطراره إلى قبول عقد معاهدة معهم – قد أثار غضب اليمنيين مما جعله يتعرض لهجوم الفقهاء والعلماء عليه . غير أن

Marston, T. E. : Britain's Imperial Role in the Red Sea Area, P. 23. (١٣٠)

Kammerer, A. : Op. Cit., Tome II., pp. 283, 286. (١٣١)

Kammerer, A. : Ibid. Tome II., PP. 287, 288. (١٣٢)

(١٣٣) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المراجع السابق ، من ١.١ .

حجّة هذا الحاكم ترکزت دائمًا في حرصه على عدم تعرض عدن للاحتلال الكامل من قبل البرتغاليين المتقوّلين حربياً من جهة ، وفي خشيتـه من هجوم المـالـيـكـ عـلـيـهـاـ من دـاخـلـ الـيـمـنـ أوـ مـنـ نـاحـيـةـ الـبـحـرـ مـنـ جـهـةـ آخـرـيـ . وقد اضطـرـهـ هـذـاـ المـوـقـعـ إـلـىـ مـهـادـنـةـ الـبـرـتـغـالـيـنـ وـعـقـدـ المـعـاهـدـةـ المـذـكـورـةـ مـعـهمـ دونـ أـنـ يـقـصـدـ مـنـ وـرـاءـ ذـلـكـ أـنـ يـتـحـولـ لـيـصـبـحـ عـمـيـلاـ لـهـمـ . وـمـاـ يـؤـكـدـ اـخـلـاـصـ هـذـاـ الـحـاـكـمـ لـبـلـادـهـ أـنـ قـامـ بـعـدـ مـضـيـ وـقـتـ قـلـيلـ عـلـىـ رـحـيلـ الـحـمـلـةـ الـبـرـتـغـالـيـةـ عـنـ عـدـنـ بـالـقـبـضـ عـلـىـ الـبـرـتـغـالـيـنـ الـمـوـجـودـيـنـ فـيـهاـ حـيـنـذـ التـوـأـدـ عـهـمـ السـجـنـ فـيـ مـؤـخـرـةـ الـمـدـيـنـةـ بـالـقـرـبـ مـنـ الـجـبـالـ الـمـحيـطـ بـهـاـ . بلـ أـنـ سـخـرـهـمـ بـعـدـ ذـلـكـ فـيـ صـنـاعـةـ الـأـسـلـحـةـ وـالـالـلـاتـ الـحـرـبـيـةـ الـقـىـ يـتـقـنـونـ صـفـعـهـاـ . وـفـيـ نـفـسـ الـوقـتـ فـقـدـ قـامـ هـذـاـ الـحـاـكـمـ الـيـمـنـيـ بـالـكـتـابـةـ إـلـىـ السـلـطـانـ سـلـيـمانـ الـمـشـرـعـ (ـ ١٥٢٠ – ١٥٦٦ـ)ـ يـبـلـغـهـ بـالـدـخـولـ فـيـ طـاعـتـهـ (١)ـ . وـكـانـ يـهـدـفـ مـنـ وـرـاءـ هـذـاـ التـصـرـفـ أـنـ يـقـوىـ مـنـ جـانـبـهـ بـالـاسـتـعـانـةـ بـهـذـهـ الـقـوـةـ الـاسـلـامـيـةـ الـمـتـمـثـلـةـ فـيـ السـلـطـانـةـ الـعـثـمـانـيـةـ لـيـتـمـكـنـ مـنـ مـواـجـهـهـ الـبـرـتـغـالـيـنـ إـذـ حـاـلـوـاـ مـواـجـمـةـ عـدـنـ مـنـ جـدـيدـ . وـبـذـلـكـ ظـلـتـ عـدـنـ تـحـافـظـ عـلـىـ اـسـتـقـالـلـهـاـ وـحـرـيـتـهـاـ عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ فـقـدـهـاـ لـقـوـمـاتـهـاـ الـاقـتصـادـيـةـ نـتـيـجـةـ لـلـحـصارـ الـبـحـرـيـ الـبـرـتـغـالـيـ عـلـىـ الـمـفـرـقـ عـلـيـهـاـ مـنـ جـهـةـ ، وـافتـقارـهـاـ لـسـانـدـةـ الـجـبـيـةـ الـدـاخـلـيـةـ الـمـنـهـارـةـ بـعـدـ سـقـوـطـ الدـوـلـةـ الـطـاـهـرـيـةـ مـنـ جـهـةـ آخـرـيـ . وـلـهـذـاـ اـضـطـرـتـ عـدـنـ إـلـىـ الـاعـتـمـادـ عـلـىـ ذـاتـهـاـ حـتـىـ تـمـكـنـتـ مـنـ الـمـقاـوـمـةـ حـيـنـاـ ، وـمـنـ مـهـادـنـةـ الـبـرـتـغـالـيـنـ حـيـنـاـ آخـرـ ثـمـ تـقـرـبـتـ إـلـىـ الـعـثـمـانـيـنـ بـعـدـ ذـلـكـ حـتـىـ سـقـطـتـ فـيـ أـيـديـهـمـ فـيـ سـنـةـ ١٥٣٨ـ . وـقـدـ اـتـخـذـهـاـ الـعـثـمـانـيـوـنـ قـاعـدـةـ لـلـوـثـوبـ عـلـىـ الـبـحـرـيـةـ الـبـرـتـغـالـيـةـ فـيـ الـهـنـدـ مـنـ جـهـةـ ، ثـمـ لـلـدـفـاعـ عـنـ الـحـدـودـ الـجـنـوـبـيـةـ الـسـلـطـانـةـ الـعـثـمـانـيـةـ مـنـ جـهـةـ آخـرـيـ عـنـدـمـاـ عـجـزـوـاـ عـنـ تـحـقـيقـ غـايـيـتـهـمـ الـأـولـىـ .

على أن العثمانيين بعد أن ورثوا حكم السلطنة المملوكية في سنة ١٥١٧
فإنهم بدأوا يحملون لواء الحرب بأنفسهم ضد البرتغاليين والاسبان في البحر
المتوسط على النحو الذي أشرنا إليه في البحر الشرقي وخاصة في البحر الأحمر.
اذ كان على العثمانيين أن يعالجوها أهم المشاكل السياسية والاقتصادية
التي واجهوها في مصر بعد أن حول البرتغاليون طريق التجارة العالمية
عنها وعن عالم البحر المتوسط إلى طريق رأس الرجاء الصالح^(١٣٥) ، مما
جعل الحرب مع البرتغاليين ضرورة حتمية . وقد راد من خطورة البرتغاليين
في نظر العثمانيين تحالفهم مع التسعة الصوفيين في فارس الذين كانوا على
عداء مذهبى مع الدولة العثمانية . كما حرص العثمانيون على الدفاع عن
الاماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ضد الخطر البرتغالي لينالوا بذلك
شرف حماية الحرمين الشريفين حتى تكون لهم الزعامة في العالم الإسلامي
وقد اتصفت خطوات العثمانيين لتدعمهم نفوذهم في البحر الأحمر في
بداية الامر بالضعف في الفترة التي أعقبت سيطرتهم على مصر وحتى
سيطرتهم على اليمن في سنة ١٥٣٨ . ويرجع السبب في ذلك الى انشغال
العثمانيين في جبهات متعددة آنذاك مما جعل سيادتهم في هذا البحر سيادة
رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلى هناك . وقد ظل المماليك
الموجودين في اليمن حينذاك يمثلون السيادة الاسمية للعثمانيين في جنوبى
البحر الأحمر وخاصة في بلاد اليمن ، غير أنهم انحرفووا إلى أعمال السلب
والنهب ، كما أنهم حاولوا الاحتفاظ بكيانهم الخاص هناك رغم اعترافهم
بالسيادة للعثمانيين ولكن نجاح بعض العمليات الحربية للبرتغاليين في
جنوب البحر الأحمر حتم على العثمانيين ضرورة اتخاذ خطوة ايجابية
لحماية حدود دولتهم من الجنوب ودرء خطر الغزو البرتغالي الصليبي عن

(١٣٥) محمد محمود السروجي (دكتور) : سياسة مصر العربية في النصف
الثاني من القرن التاسع عشر ، ثورة العصير ١٨٦٤-١٨٦٦ ، ص ٢٢ .
اسمية رغم محاولاتهم المتعددة لفرض نفوذهم الفعلى هناك . وقد ظل المماليك

الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز ، ومحاولة توجيهه ضرورة للبرتغاليين لاعادة التجارة العالمية الى طريقها التقليدي القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط .

وقد رأى العثمانيون أن سيطرتهم الفعلية على اليمن ستحقق أهدافهم في حربهم ضد البرتغاليين آنذاك . فهي بحكم موقعها الممتاز في جنوب غرب الجزيرة العربية^(١٣٦) وبحكم اشرافها على مضيق باب المندب ، تعتبر منطقة دفاع هامة عن حدود الدولة العثمانية من ناحية الجنوب ، بحيث يمكّنهم بالسيطرة عليها أن يضمنوا سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز ، وأن يتحكموا في البحرين الاحمر والعربي ، فضلاً عن امتلاك موطيء صالح للوثوب على البحرية البرتغالية في البحار الشرقية ، وتطويق أعدائهم الشيعة الصفويين في فارس من الجنوب ، وتحقيق أحلامهم بقصد سيطرتهم شرقاً إلى أقصى العالم الاسلامي^(١٣٧) ، واعادة التجارة العالمية إلى طريقها التقليدي القديم عبر مصر وعالم البحر المتوسط من جديد .

ويمكّنا أن ن تتبع خطوات العثمانيين في البحر الاحمر وجهودهم لتدعم نفوذهم الفعلى في بلاد اليمن بعد أن ضعفت الحامية المملوكية هناك — رغم اعترافها بسيادة العثمانيين — عن تحقيق أهدافهم في الفترة الممتدة بين عامي ١٥١٧ و ١٥٣٨^(١٣٨) ، كما لم تؤد الحملة البحرية الأولى التي أرسلها العثمانيون إلى جنوب البحر الاحمر وإلى الهند في سنة ١٥٢٦ و تكونت من عشرين سفينة إلا إلى زيادة المنازعات بين الامراء المماليك داخل اليمن

(١٣٦) الهمданى ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ص ٥١ . الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المعنى فرجة الهموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ص ٨ .

(١٣٧) ابن داعر ، عبد الله بن صالح الدين بن داود : الفتوحات المرادية في الجهات اليمنية ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٧ ب .

— وان كانت قد نجحت نسبياً في القضاء على بعض العناصر القوية هناك مما مهد السبيل أمام العثمانيين فيما بعد للسيطرة على "البلاد" (١٣٩) غير أن هذه الحملة لم تتمكن من القيام بعمل يذكر في الهند ضد البرتغاليين الذين ازداد خطرهم بتحالفهم مع المفوّفين في فارس ، وقد تأكّد العثمانيون من هذا الخطر بعد دخول أمراء البصرة والقطيف والبحرين في طاعة الدولة العثمانية في آعقاب فتح بغداد في سنة ١٥٣٤ بحيث أحبّع العثمانيون يواجهون البرتغاليين مباشرةً في البحر الأحمر والخليج العربي على السواء ولهذا قرر العثمانيون توجيه حملة ثانية إلى الهند لتحقيق غايياتهم وأهمها طرد البرتغاليين من البحار الشرقية، وبناء على أوامر السلطان سليمان المشرع تم تجهيز حملة قوية أبحرت من ميناء السويس ٢٧ يونيو سنة ١٥٣٨ بقيادة سليمان باشا الخادم الذي كان واحداً من مماليك السلطان سليمان الأول المقربين إليه (١٤٠) وقد اتّخذ قائد الحملة بكلة الخطوات اللازمة لتنفيذ خطة العثمانيين العامة في البحر الأحمر والتي تستهدف سيطرتهم عليه قبل ارسال الاسطول العثماني إلى الهند . وقد اتصل سليمان الخادم بالأمراء المحاكمين في جهات البحر الأحمر وخاصةً أمراء الساحل اليمني مثل أميرى عدن والشحر بدر الطويق اعلن ولائه للعثمانيين ، بينما روا لهم عامر بن داود الطاهري حاكم عدن ولم يرد على رسالة سليمان باشا إليه ، قـكان ذلك من أسباب قتله غداً عقب وصول الحملة إلى عدن .

وقد وصلت الحملة العثمانية إلى عدن في اليوم الثالث من أغسطس سنة ١٥٣٨ (١٤١) وما أن شاهدها عامر بن داود حتى اضطر إلى أن يغير من

(١٣٩) ابن داشر : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، من ١٨٨ (١) .

Hammer, J.: Op. Cit., Tome 5., P. 302.

Playfair, R. L. : op. Cit., P. 101.

(١٤٠)

(١٤١)

سياسته ازاء قوة العثمانيين المهاطلة . ولهذا فقد أحسن استقبال الحملة وفتح أمامها أبواب المدينة حتى يحصلوا على ما يشاؤن من طعام ومؤن بناء على مطلب سليمان باشا الخادم . غير أن الاخير كان قد كلف جنوده سرا بقيادة المصوباشي فرحتات بالاستيلاء على عدن عقب دخولها مباشرة . وقام الجنود العثمانيون بتنفيذ الخطة على الفور ، بل انهم قاموا أيضا بسلب المدينة ونهبها حتى استدعاهم بعض القيادة حرصا منهم على عدم اشاعة الفوضى في المدينة . وفي نفس الوقت الذي دخل فيه الجنود العثمانيون مدينة عدن كان عامر بن داود قد توجه إلى سفينته القيادة ومعه ستة من كبار أتباعه لمقابلة سليمان باشا الخادم بناء على دعوته . وقد أحسن الاخير استقبالهم في بداية الامر وخلع عليهم ^(١٤٢) . حتى وصل نباء احتلال جنوده لمدينة عدن ، فتذكر لعامر ابن داود ورفاقه ^(١٤٣) وأمر بتنقهم على صارى سفينته وتركهم معلقين به لمدة ثلاثة ايام ^(١٤٤) .

وهكذا تم استيلاء العثمانيين على عدن بعد خمسة أيام من وصولهم إليها أي في اليوم الثامن من اغسطس سنة ١٥٣٨ (١٢ ربیع الاول سنة ٩٤٥ھ) . وقد أمر سليمان باشا الخادم بقتل من يبقى من آل طاهر ، وكانت عدن آخر معاقلهم . كما أمر بمصادرة ممتلكاتهم وذلك بحجة انهم حاولوا تسليم عدن للبرتغاليين . وقد أنكر كثيرون من المؤرخين هذه التهمة ^(١٤٥) التي تتعارض تماما مع ما سبق أن أوضحناه عنهم من قبل . وقد أثار سليمان باشا الخادم على حكم عدن أحد سناجق الحملة وهو الامير « بهرام » تساندة قوة قوامها خمسماة مقاتل عثماني ، تما حصن مدينة

(١٤٢) عيسى بن لطف الله : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، ص ١٨ .

(١٤٣) قطب الدين النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ، مخطوطة ،

من ٥ (١) .

(١٤٤) الجراف ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، ص ٨٨

(١٤٥) أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبد التاريخ ، ص ٢٦٢ .

عدن بالمدافع^(١٤٦) . وقد أخفى سليمان باشا الخادم أسلوبه الغادر في عدن عن المسؤولين العثمانيين في استانبول ، وذكر في رسالة بعث بها إلى السلطان العثماني « أنه أخذ عدن قهراً »^(١٤٧) . غير أن أسلوب سليمان الخادم الذي اتصف بالغدر أفقد العثمانيين ثقة أهالي هذه المناطق ، كما أنه خصيّ عليهم فرصة تكوين جبهة إسلامية في البحار العربية والمحيط الهندي لمواجهة خطر البرتغاليين المتزايد^(١٤٨) . و إعادة التجارة العالمية إلى طريقها التقليدي القديم عبر مصر والبحر المتوسط .

على أن العثمانيين بعد أن سيطروا على عدن أبحروا حملتهم متوجهة إلى « ديو » لتحقيق المرحلة الثانية من خطتهم الترامبية إلى محاربة البرتغاليين في البحار الشرقية . وقد وصلت الحملة العثمانية إلى « ديو » في اليوم الرابع من سبتمبر سنة ١٥٣٨ غير أنها فشلت في تحقيق غايتها ، نتيجة لضعف شخصية قائدها سليمان الخادم من جهة ، وضعف جبهة حلفائها الهندو في سلطنة « كجرات » وباقى سلطנות سحل الهند الغربي من جهة أخرى . وكان ما فعلته هذه الحملة هي أنها حاصرت القلعة البرتغالية في « ديو » من ناحية البحر في اليوم الخامس من أكتوبر سنة ١٥٣٨ . بل أن هذا الحصار لم يستمر طويلاً بعد أن أدخل على العثمانيين نبياً وصول نجدة برتغالية إلى « ديو » . إذ قرر سليمان الخادم رفع الحصار والعودة إلى شواطئ الجزيرة العربية وذلك في اليوم الخامس من نوفمبر سنة ١٥٤٨^(١٤٩) . وبذلك اكتفى العثمانيون بأن يكون هدف

Serjeant, R. B. : Op. Cit., P. 95.

(١٤٧) قطب الدين النهرواني : البرق اليماني في الفتح العثماني ، من ١٨ (ب) .

(١٤٨) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المراجع السابق ، ص ١٤٦ .

Denison, R. E. : The Portuguese in India and Arabia J. R. A. S., part I., January, 1922, P. 7.

حملتهم قاصراً على اتمام فتح السواحل اليمنية التي يمكن عن طريقها تأمين أمبراطوريتهم من الجنوب حتى يعوضوا أيفسهم عن الفشل (١٥٠) • الذي منوا به في محاربة البرتغاليين على السواحل الهندية •

وإذا كان العثمانيون قد نجحوا في السيطرة بعض الوقت على الشعور البحري الواقع على طول الساحل الجنوبي لتبعة المجزرة العربية بما فيها ميناء عدن وشمور حضرموت ، كما نفذوا إلى داخل الخليج العربي حتى وصلوا إلى البصرة واتصلوا بالامارات العربية في الخليج كعمان والاحساء والبحرين والكويت ، فإن سلطانهم لم يستقر هناك نظراً لأن سكان المناطق الداخلية لم يعترفوا بالولاية للسلطان العثماني مما أدى إلى زوال نفوذهم عن تلك المناطق في وقت قصير (١٥١) •

وعقب وصول سليمان الخادم إلى ميناء الشحر اليمني بدأ في اتخاذ الخطوات التنفيذية لاخضاع السواحل اليمنية لسيطرة العثمانية • وقد أصدر أمره بتولية السلطان بدر الطويريق على حكم حضرموت تحت سيادة العثمانيين على أن يدفع لهم جزية سنوية (١٥٢) • تم اتجاهه بعد ذلك إلى عدن التي أبهر منها إلى ميناء مخا حيث أنزل قواته إلى الساحل استعداداً لاخضاع الماليك في زبيد لسيطرة العثمانيين • وقد أغرق الناخدود أحمد بتعيينه حاكماً لليمن نيابة عن الدولة العثمانية (١٥٣) • غير أنه غدر بعامر بن داود وأمر بقتله في ٢٧ فبراير سنة ١٥٣٩ ، وقام بتعيين أحد أمراء

(١٥٠) العقيلي ، محمد بن احمد عيسى : تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ، ج ١ ، ق ٢ ، ص ٣٧ .

Sanger, K. : The Arabian Peninsula, p. 220.

Serjeant, R. B. Op. Cit., P. 106.

(١٥٣) قطب الدين التهروالي : البرق اليمني في الفتوح العثمانية ، مخطوطة ، ص ١٩ (١) .

الحملة وهو مصطفى بك نائب «غزة» السابق حاكماً لزبيد والمناطق التهامية في اليمن التي كانت خاصة للحكم الملوكي . وقد استعمل سليمان الخادم بكثير من الماليلك في بعض المناصب الادارية والجربية مستفيداً من خيرتهم وشئون اليمن . واذا كان العثمانيون قد قضوا على الظاهريين بعد استيلائهم على عدن من جهة ، واجهوا الماليلك بعد استيلائهم على زبيد من جهة أخرى ، فان ذلك كان يعني بدأيه المواجهة المباشرة بينهم وبين القوة الثالثة في اليمن وهي الامامة الزيدية من جهة ثالثة ، وهي التي كان يتزعزعها حينذاك الامام الزيدى شرف الدين بن يحيى . ورغم محاولة سليمان الخادم استدراجه الامام شرف الدين عن طريق الرسائل والرسائل على نحو ما فعل مع عامر بن داود والتلخوده احمد ، غير أن الامام كان متيقظاً حذراً : ولهذا ظل الطرفان يتباران الرسائل حتى دامر سليمان الخادم بلاد اليمن (١٥٢) دون أن ينجح في القضاء على الامام شرف الدين (١٥٣) . وسيظل نظام الامامة الزيدية قائماً في اليمن طوال العهد العثماني وبعده بعديته وحتى قيام ثورة اليمن في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢.

وقد حرص سليمان الخادم على احكام سيطرة العثمانيين على المدخل الجنوبي للبحر الاحمر حتى يمنع تسلّب أية سلالة برتغالية عبر مضيق باب المندب . ولهذا اهتم بتحسين جزيرة قمران وذلك بانزال بعض مدافع الاسطول الكبيرة إليها . كما قام باخضاع ميناء «جيزان» للسيطرة العثمانية اثناء عودته إلى جدة ووضعه تحت الاشراف المباشر لوالى زبيد العثماني (١٥٤) واخيراً وصل سليمان الخادم إلى جدة في ١٣ مارس

(١٥٤) ابن دامر : المصدر السابق ، مخطوطة ، ج ١ ، ق ١ ، ص ١٨٨ (ب) .

(١٥٥) يحيى بن الحسين : المصدر السابق ، مخطوطة ، ص ١٢٢ .

(١٥٦) قطب الدين النهروالى : البرق اليماني في الفتح العثماني ، من ١٩٦١

سنة ١٥٣٩ ومكث فيها بعض الوقت ثم عاد بعد ذلك إلى أستانبول (١٥٧) ، بينما عادت الحملة العثمانية إلى مصر بعد أن انتهت من عملياتها على الساحل الميمنى .

وتجدر الإشارة إلى أن الأمور لم تستقر في يد العثمانيين في عدن على الرغم من أن سليمان الخادم كان قد ترك حامية قوية هناك لتدعمهم السيطرة العثمانية على المدينة . غير أن سكان عدن قاموا بدوره ضد الاتراك مما اضطر العثمانيين إلى توجيهه أسطول قوى يقوده « برى باشا » لاقرار الأمور في عدن في سنة ١٥٥١ وليحفظ للدولة العثمانية هيبيتها في هذه الجهات وقد قام « برى » بتصف تحصينات عدن واستولى عليها بهجوم خاطف وطرد البرتغاليين الذين كانوا قد انتهزوا الفرصة ونفذوا إلى هناك ، ثم ترك فيها حامية قوية وأبحر عائداً إلى مصر (١٥٨) . وعلى ذمة حال فقد ارتبطت العمليات البحرية العثمانية ضد البرتغاليين عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر وفي خليج عدن والمحيط الهندي بفكرة أن عدن هي القاعدة الأساسية من الناحية الاستراتيجية لهذه العمليات (١٥٩) ، مما أوجب على العثمانيين خروفة المحافظة على بقائها في أيديهم .

ولم يتقض النصف الأول من القرن السادس عشر إلا وكان العثمانيون قد طردوا البرتغاليين من البحر الأحمر واستولوا على الموانئ الهامة على شاطئيّ الآسيوي والأفريقي وهي سواكن وعقبق ومصوع ودهونو على الساحل الافريقي . كما استولوا على عدن وحصنوا جدة على الساحل الآسيوي ، وجعلوا من البحر الأحمر بحيرة عثمانية أغلقوها في وجه السفن

Playfair, R. L.: op. Cit., pp. 102, 103.

(١٥٧)

Hunter, F. M.: Op. Cit., P. 163.

(١٥٨)

(١٥٩) محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : نتاج

العثمانيين في عدن عام ١٥٢٨ م، ص ١٢

الاوروبية . وفي منتصف هذا القرن أيضاً عين العثمانيون حاكماً تركياً على مصوع وآخر على سواكن ، ووضعوا هذين الحاكمين تحت اشراف والى جدة وهو حاكم الحجاز ، كما استعانوا بأحد نزراء الوطنين وهو نائب « أركيكو Arikiko لمساعدة في أعمال الحكومة بمصوع » ، واستعاناً أيضاً بآخر مثله في سواكن ، وكلفوهما بجباية الضرائب من القبائل المنتشرة على الساحل الغربي للبحر الاحمر ^(١٦٠) .

وتتجدر الاشارة الى أن الدولة العثمانية حرصت على تدعيم قوتها في اليمن في عهد السلطان سليم الثاني (١٥٧٤ - ١٥٨٢ / ٩٧٤ - ٩٨٢) لتثبيت حكمها هناك أمام مقاومة الامامة الزيدية من جهة ، والتتصدي لنفوذ البرتغالي المتزايد في المحيط الهندي من جهة ثانية ، ومحاولة السيطرة على تجارة الهند والشرق الاقصى من جهة ثالثة ، وذلك بارسال حملة سنان باشا التي وصلت الى اليمن في سنة (١٥٧٦ - ١٥٧٩) واعتبرت فتحاً عثمانياً لليمن ^(١٦١) وأظهرت أن الدولة العثمانية ظلت تواصل مهمتها حتى هذا التاريخ في التصدى للبرتغاليين في البحر الشرقي ^(١٦٢) بتدعم مرکزها في اليمن آنذاك ^(١٦٣) . كما امتد نضال العثمانيين ضد البرتغاليين كذلك الى الساحل الشرقي لأفريقيا . فقد أرسل السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) القائد البحري « ميرال بك Mirale Bey » في سنة ١٥٨٨ بقوة لتخليص البلاد الاسلامية الواقعة على الساحل الشرقي لأفريقيا من السيطرة البرتغالية . وقد قوبل القائد العثماني بالترحاب من قبل سكان

Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, PP. 2, 3.

(١٦١) قطب الدين النهرواني : البرق اليمني في الفتح العثماني ، ص ٢١٣
Hammer, J. : Op. Cit., Tome 6., 367.

(١٦٢) السيد مصطفى سالم (دكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٧٨ .
عمر عبد العزيز (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب الحديث ، ص ١٠٣

الامارات الاسلامية في « مدغشقر » و « براوا » و (قسيمايو) اذ نظروا انبه نظرة المخلص من يد الاجنبي وفضلوا الخضوع للعثمانيين المسلمين عن الولاء للبرتغاليين (١٦٢) غير أن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحتفظوا في هذه البلاد بقوات تثبت سلطانهم وتحمى السكان من اغارات البرتغاليين الذين مالبتو أن استعادوا سلطانهم وانتقاموا من السكان الذين أظهروا ولاعهم للعثمانيين .

وقد اتخذ الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين على السواحل الافريقية الشرقية فيها السواحل الافريقية لبحر الاحمر صورا متعددة ، منها أن الدولة العثمانية كانت تؤيد وتعاون المالكين الاسلامية المحيطة بهضبة الحبشة والتي سميت بملك الطراز . بينما كانت البرتغال تؤيد الحبشة وتعينها على مهاجمة هذه المالك الاسلامية المحيطة بها . وظل ذلك الصراع حتى القرن السابع عشر عندما فترت الحمية في الدولتين وضعف قوتיהם فنركت الدولة العثمانية اليمن في سنة ١٦٣٥ ، ونم ييق تحت سيادتها إلا بعض الشعوب الافريقية يمصور ، وذلك بعد أن اضطر البرتغاليون إلى القتال عن مکانهم في البحر الشرقيه لنافسيهم : الهولنديين والانجليز والفرنسيين الذين أسسوا شركات استعمارية لهم في المياه الهندی . على ان العرب في البحر الشرقيه بوجه عام وفي البحر الاحمر بوجه خاص ، قد رحبوا في بداية الامر بمساعدة العثمانيين المسلمين لهم في كفاحهم المرير ضد البرتغاليين وغيرهم من الاوربيين الذين جاءوا لاستعمار بلادهم والسيطرة على مقدراتهم . كما قبلوا أن ينزلوا العثمانيين عن قيادة المعركة مل وأيضا عن السيادة في دارهم مما مهد السبيل أمام العثمانيين للسيطرة على معظم البلاد العربية وخاصة في حوض البحرين المتوسط والاحمر

عفترة قصيرة، وكان ذلك بمثابة الثمن الذي تقاضاه العثمانيون لقاء الحملات التي وجهوها للشام و سرق حوض البحر المتوسط من جهة ، ومن قاعدة السويس إلى البحار الشرقية من جهة أخرى والتي انتهت جميعها إلى الخليج العربي ، وإن كان بعضها قد وصل إلى سواحل الهند .

وإذا كان العثمانيون قد تمكنا من وقف النزاع البرتغالي ، وتأمين البلدان العربية وخاصة في حوض البحر المتوسط من عدوان الإسبان والبرتغاليين ، وفي حوض البحر الأحمر من عدوان البرتغاليين ، فإنهم عجزوا في النهاية عن تحقيق غايتهم الرئيسية وهي تحطيم المنافسة البرتغالية في البحار الشرقية ، وشق طرق واسعة للتجار والملاحين العرب . ويرجع سبب أخفاق العثمانيين في تحقيق تلك الغاية إلى عجزهم عن تأليف العرب والمسلمين في البحار الشرقية ليوحدهم قواسم جمیعاً لكافحة السيطرة البرتغالية . ومن النتائج التي اسدر عنها أخفاق العثمانيين في هذا السبيل أنهم أهملوا قواعدهم في الخليج العربي ، مما اتاح الفرصة للعرب هناك للاحتفاظ باستغلالهم بعض الوقت ، كما اتاح الفرصة للقوى الأجنبية الأخرى من التغلل في هذه المناطق عندما حاولت أن تحل محل البرتغاليين في البحار الشرقية .

وهكذا قام الحثما الطاهريين والمالطيك بدورهم في مواجهة غزو البرتغاليين الاستعماري للبحار الشرقية واحتوائهم للتجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالحة ، غير ما سمحت ظروفهم وظروفاتهم ، حتى خبا نجم البرتغاليين هناك في نهاية القرن السادس عشر . ويرجع السبب في ذلك إلى أن البرتغال فقدت استقلالها وضفت إلى إسبانيا في سنة ١٥٨٠ ، مما أدى إلى تدهور قوة البرتغاليين على الرغم من أن هنوك إسبانيا ظلوا يرعون

مصالح الامبراطورية البرتغالية لفتره غير قصيرة (١٦٤) . كذلك اتصف البرتغاليون بالتعصب والقسوة في معاملة شعوب المناطق التي سيطروا عليها ، كما أنهم لم يكتفى بتنظيم التجارة مع تلك الشعوب (١٦٥) بل أن سياسة البرتغاليين كانت ترمي إلى القهر العسى ثم استغلال الشعوب المقهورة في الحصول على المواد الخام . كما أنهم اعتمدوا كلية على الرقيق والمرتزقة من الهند و هو أدر لم يكن في ذلك نظراً لارتباط هؤلاء مأهالى انبلاط الأصليين بطبيعة الحال مما جعلهم لا ينفاذون في الحفاظ على المصالح البرتغالية .

من أهم الاسباب التي أضعفت النظام الاستعماري البرتغالي في ملدان الشرق بوجه عام ، هو أن الملك كان يحتكر تجارة السلع المزيفة فلم يترك مجالاً للبرجوازية التي كانت أكثر نشاطاً في النظمتين الهولندية والبريطانية . إذ أن تأسيس البرجوازية للشركات الاحتكارية كان يربط مصالح كثير من الأفراد بحركة الاستعمار . هذا فضلاً عن عدم وجود نظام دقيق في البحريه البرتغالية ، وتكرر حوادث الفنرد والخلافات بين كبار الضباط . وسوف يعقب انهيار القوة البرتغالية ظهور قوى بحرية جديدة في المحيط الهندي والمحيط العربي والبحر الأحمر في أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر ، وتمثلت هذه القوى المنافسة بأنها أكثر ادراكاً والبريطانيين والفرنسيين ، وقد تميزت هذه القوى المنافسة بأنها أكثر ادراكاً للمصالح التجارية (١٦٦) . فقد دخلت هولندا حلبة المصارع في البحر الشرقي لتحقيق أهدافها الاستعمارية عندما أسست شركة الهند الشرقية الهولندية

(١٦٤) Fisher, H. A. L. : History of Europe, vol. I. p. 605

(١٦٥) Wilson, A. T.: Op. Cit., p. 122.

(١٦٧) صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي

سنة ١٥٩٤ (١٦٠) ، ثم

The Dutch East India Company

اعقبتها إنجلترا^١ التي أسست « شركة الهند الشرقية الانجليزية

في سنة ١٦٠٠ (١٦١) بينما

The East India Company

كانت قد أنشأت من قبل شركة الليفانس في سنة ١٥٨١ ، التي كانت بها اختصاصات سياسية وتجارية واسعة في شرقى البحر المتوسط (١٦٢) وكذلك أسست مرتضا « شركة الهند الشرقية الفرنسية Compagine des Indes في سنة ١٦٦٤ والتي احتكرت نصف التجارة الفرنسية مع جزر الهند الشرقية ومدغشقر عن طريق رأس الرجاء الصالح ، (١٦٣) مما أدى في النهاية إلى تحطيم الاحتكار البرتغالي لتجارة الشرق الذي استمر قرابة قرن من الزمان منذ أن وصلت السفن البرتغالية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ .

وتجدر بالذكر أن الدولة العثمانية ظلت تحافظ على اغلاق البحر الاحمر في وجه السفن الاوروبية طوال القرن السادس عشر وتعارض في نصفه كطريق ملاحي حفاظا على أنها وعلى سلامة الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز بعد أن أصبح السلطان العثماني « حامي حمى الحرمين الشريفين » وهو أمر يعزز مكانته لدى العالم الاسلامي « وظل البحر الاحمر قابرا على السفن العربية والغ Chapmanية المحدودة لقمح عبايه (١٦٤) . ويدا

(١٦٨) صلاح العقاد (دكتور) : القيارات السياسية في الخليج العربي ،

ص ٢١ .

Hoskins, H. L. : British Routes to India, pp. 4,5.

(١٦٩)

Phillips, C. H. : The East India Company 1784 - 1834, p. 15

(١٧٠)

Epstein,M. : Op. Cit., p. 52.

(١٧١)

Hoskins, H. L. : The Growth of British Interest in the
Route to India,,(J. O. F. H.), p. 169.

(١٧٢)

(١٧٣)

Rabath E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans L'evolution du Droit
International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962 . ,
pp. 20,21 .

أن الدولة العثمانية كانت تخشى حتى بعد زوال الخطر البرتغالي من فتح البحر الأحمر للتجارة الدولية إلى ما سوف يترتب على ذلك من انتعاش مصر الاقتصادي مما يؤدي إلى زيادة قوة المماليك ويشجعهم على الانفصال عن كيانها . كما كان السلطان العثماني يرى أن الفوائد الجمركية التي يمكن أن تعود على مصر من هذا الطريق لا تقييد منها الدولة العثمانية شيئاً ، بينما تزيد من قوة المماليك . بل أن الباب العالي كان يخشى أن يؤدي فتح هذا الطريق الملاحي الهام للسفن الأوروبية إلى زيادة التفود الاجنبي في مصر بما يقطع الأمل في بقائها في حظيرة السلطنة العثمانية .

على أن السلطان العثماني فيما بعد ، لم يوجد خاصية في السماح للسفن الأجنبية بنقل التجارة عبر بحر الأحمر حتى ميئاء جده فقط ، ليشكل بذلك حصيلة للهجاز من العوائد الجمركية التي كانت تكفي لسد نفقات رعاية الحرمين ولا تحمل الدولة العثمانية من هذه النفقات في وقت كانت تتواء فيها ميزانيتها باعباتها الثقيلة . هذا بالإضافة إلى أن الباب العالي كان يرى أن النساط التجاري في البحر الأحمر سوف يؤدي إلى انخفاض التجارة في الخليج العربي وال العراق ، وهو الطريق الآخر الذي كانت تصل البضائع عبره إلى موانى البحر المتوسط وإلى - صمة الدولة العثمانية نفسها ، بعدها أفل نجم البرتغاليين في المحيط الأطلسي في نهاية القرن السادس عشر . وللهذا فقد ظلت الدولة العثمانية سعيدة على تطبيق هذا المبدأ حتى نهاية القرن الثامن عشر ، مما جعلها تندفع بشدة نحو بريطانيا لوصول بعض سفنها إلى السويس آنذاك ١٧٤٠^(١) . كانت شركة الهند الشرقية

(١) عبد العزيز الشناوى (دكته) : الدول العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها ، ج ١ ، من ٢١-١٠ .

البريطانية تبذل جهودها بصفة دائمة لاحياء طريق التجارة القديم عبر البحر الاحمر ومصر والبحر المتوسط لنقل التجارة والمسافرين بين انجلترا والهند آنذاك ، حتى حصل الانجليز على اتفاق مع على بك الكبير (١٧٦٩) — (١٧٧٣) بحقهم في تجاوز جدة شمالاً براكيتهم الى السويس ، بعد أن كان محظماً عليهم ذلك . (١٧٥) وقد ظل الحال على ذلك في عهد خلفه محمد بك أبي الذهب (١٧٧٣ — ١٧٧٤ م) وتابعهم الفرنسيون في الحصول على مثل هذه الامتيازات بعد قليل (١٧٦) .

وعلى أية حال فقد شكل العثمانيون تغطية استراتيجية لحفظها على أمن العالم الاسلامي في مصر وعالم البحر المتوسط من جهة ، وفي منطقة البحر الاحمر التي تضم الاماكن الاسلامية المقدسة في الحجاز من جهة أخرى طوال القرن السادس عشر ، حتى أفل نجم البرتغاليين في البحر الشرقي في نهاية القرن المذكور . وقد جاءت هذه التغطية الاستراتيجية العثمانية للمنطقة المذكورة في وقت كانت تتعرض فيه لفراغ سياسي واستراتيجي نتيجة لانقسام الماليك وفشلهم في صد الغزو البرتغالي الذي كان يهدد المنطقة من جهة ، هذا فضلاً عن انهيار الاوضاع الاقتصادية لديهم من جهة أخرى . ويعد هذا الدور أكبر مكرمة للمسلمين في جوهر علاقاتهم بأسقاطهم المسلمين في عالم البحرين المتوسط والاحمر في القرن السادس عشر ، كما يؤكد وحدة المنطقة في مجال التخطيط الاستراتيجي لقضية أنها وسلمتها .

وفي ختام هذا البحث فإنه يمكن القول بأن تحول التجارة العالمية

Aitchison, C. U.: A Collection of Treaties, Engagements and Sanads, (٢٧٠)
relating to India and the Neighbouring Countries, Vol. XI, p. 123. (١٧٦)
Marston, T. E. : Op. Cit., pp. 31, 32.

إلى طريق رأس الرجاء الصالحة كان له أثراً واضحاً في مقدرات مصر وعالم البحر المتوسط اقتصادياً وسياسياً ودبلوماسياً واستراتيجياً أثناء القرن السادس عشر الميلادي بالقدر الذي أوضنه على مدار هذا البحث . وقد تبينا أن الطرق البرية المؤدية إلى مصر وعالم البحر المتوسط سواء من ناحية الشرق من العراق والشام والجزيرة العربية ، أو من ناحية الجنوب من أواسط القارة الأفريقية ، وخاصة من الصومال وإثيوبيا والسودان وصعيد مصر ، أو من ناحية الغرب من أرجاء المغرب العربي من طرابلس الغرب وتونس والجزائر ومراتش ، فضلاً عن النطاق الداخلي للبحر الأحمر حتى مضيق باب المندب ، والخليج العربي حتى مضيق هرمز ، قد مر عبرها قدر نسبي من التجارة العالمية . وقد ساعد على تشغيل حركة التجارة العالمية في الطرق البرية والبحرية المشار إليها رحلة الحج السنوية إلى الأماكن الإسلامية المقدسة في الحجاز ذهاباً وعدة ، على الرغم من الحصار البرتغالي للمنافذ البحرية المؤدية للمحيط الهندي أثناء القرن السادس عشر الميلادي وتوضّح الوثائق الملحقة بالبحث والمحفوظة بأرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية والتي تخص محكمة الاسكندرية الشرعية والعائدة إلى منتصف القرن العاشر الهجري والحادي عشر الميلادي (١٧٧) استمرارية

(١٧٧) أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية ، محكمة الاسكندرية الشرعية دفتر سجل مبایعات رقم (١) ويعود للفترة من ٢٤ شعبان سنة ١٩٥٧ - ١٥٥٠م) إلى ١٧ شعبان سنة ١٩٥٨ - ١٩٥١م) ، ص ٢٤ مادة ١٠٩ ، من ٣٦ مادة ١٦٦ ، ص ٣٨ مادة ١٧٥ ، ص ٤٨ مادة ٢١٧ ، ص ٥٥ مادة ١٤٦ ، من ٩٩ مادة ٤٧١ ، ص ١٠٢ مادة ٢٨٤ ، ص ٢٠٧ مادة ٩١٨ ، ص ٢٣١ مادة ١٠٦ من ٢٢٧ مادة ١٣٩٢ ، ص ٣٢٨ مادة ١٣٩٥ ، ص ٣٣٩ مادة ١٤٣٧ ، ص ٤١٢ مادة ١٧٣٢ ، وهي وثائق تتعلق بنشاط التجارة المغاربية بالاسكندرية تقول يسبق نشرها ، وتمثل المجموعة الأولى الملحقة بالبحث ، ص ٩٢ مادة ٤٣٥ ، من ٩٦ مادة ٤٥٦ ، ص ٦٠ مادة ٢٧٠ ، ص ١١٤ مادة ٥٤٠ ، ص ٣٢٨ مادة

النشاط التجارى النسبي فى مصر وعالم البحر المتوسط فى ذلك الحين غير أن هذا القدر من التجارة العالمية ، وهذا النشاط التجارى النسبي الذى شهدته القرن السادس عشر ، لم يوفر لسكان مصر وعالم البحر المتوسط نفس القدر من الازدهار الاقتصادى الذى عاشوا فى ظلله الوارفة قبل تحول التجارة العالمية الى طريق رأس الرجاء الصالح فى نهاية القرن الخامس عشر
الميلادى .

١٣٩٤ ، ص ٣٢٨ ، مادة ١٣٩٣ ، ص ٣٢٠ مادة ١٣٦٤ ، وهى وثائق تتعلق بالنشاط التجارى للجاليات الأوروبية وببعض مواطنى جزر البحر المتوسط فى مدينة الإسكندرية فى الفترة المذكورة ، وتمثل المجموعة الملحقة بالبحث .

الملاقي

(المجموعة الوثائقية الأولى)

وثائق محفوظة بأرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية وتفص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهي تثبت وجود نشاط تجاري نسبي كانت تقوم به الجالية المغربية بالاسكندرية في منتصف القرن العاشر الهجري والحادي عشر الميلادي ، في الفترة (من ٢٤ شعبان سنة ٥٩٥٧ / ١٥٥٠ م) إلى ١٧ شعبان سنة ٥٩٥٨ / ١٥٥١ م) .

(الوثيقة رقم ١)

— أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية

— دفتر سجل مبایعات رقم (١) .

— عملية ممحكمة الاسكندرية الشرعية

— مادة رقم ١٠٩ صفحة ٣٤ .

الحمد لله وبه اكتفى يوم الاثنين المبارك حادى عشر شهر رمضان
المعظم قدره وحرمه سنة (٥٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .

— لدى سيدنا الحكم الكتامي المالكي أيده الله تعالى .

— موضوع الوثيقة : تسليم شحنة متاجر كتان وقطن وأرز وعدس
لاصحابها بالاسكندرية منقولة بواسطة سفينة يمتلكها مغربي .

أشهد عليه المعلم يوسف بن موسى اليهودي الربان العامل بالتلغر
شهوده الاشهاد الشرعى أنه تسلم من الرئيس يوسف بن أبو سعيد بن نصر

العربي المغربي الاسفاقسى (١) ما كان مشحونا بمركبہ باسم مولای مسعود الجربى (٢) الامیر ببلاد العدو المخول وهو من الكتان تسع خيشات زنة ذلك ثلاثة آلاف رطل وتسعمائة رطل وخمسة وثلاثون رطلا وقطعتين قص زنتها مایة رطل وثلاثة وتسعون رطلا وثلاثة غزاویات أرز وقفه عدس وما هو باسم الحاج محمد بن محمد المغربي النقطى عرف باسم أبو عکازین المفقود الان ببلاد النصارى قطعة قطن زنتها ثلث مایة رطل واربعة وخمسون رطل وخیشة کتان زنتها أربععماية رطل وخمسة وثمانين رطل وما هو باسم جمدة بن عبد الله الاسود اللون قطعة قطن مایتا رطل واثنتان وما هو باسم أبي داود التركى ثلث قطع تيل عجمى زنتها اربععين رطل وزنبيل التسلم الشرعى ووضع ذلك بحاصل بالديوان السعيد وأمهر عليه بمهر الحاکم الشرعى بالشفر حرر ذلك في تاريخه .

(الوثيقة رقم ٢)

— أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .

— دفتر سجل مبایعات رقم (١) .

— عملية محكمة اسكندرية الشرعية .

— من ٢٤ شعبان سنة (٥٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .

— إلى ١٧ شعبان سنة (٥٩٥٨ - ١٥٥١ م) .

— موضوع الوثيقة : تاجر ان مغربيان يتقاضيان على دين بينهما .

(١) الاسفاقسى وصحتها الاصفاقسى نسبة الى مدينة صفاقس التونسية الواقعة على الساحل الشرقي لتونس المطل على البحر المتوسط .

(٢) الجربى نسبة الى جزيرة جربة الواقعة في مواجهة الساحل الجنوبي الشرقي لتونس المطل على البحر المتوسط .

— مادة رقم ١٦٦ ص ٣٦

— يوم الاحد المبارك سابع عشر رمضان المعظم قدره (٥٩٥٧) —
١٥٥١ م) وفيه إدبه أحسن الله اليه .

ادعى الزيني عبد اللطيف بن ابراهيم بن عبد الله المغربي الاطليبي^(٣)
على الشمسي محمد الحاج عياد بن سليمان المغربي الطرايلسي أنه يستحق
في ذمته مبلغاً قدره من الذهب السلطاني الجديد معاملة تاريخية أربعة
وثلاثون ديناراً^(٤) عن ثلاثة محادر كتان دفع ذلك له ليوصله لامين الدين
بن شمس الدين بن زين الدين بن عبد الوهاب الشهير بابن خالد المصري
الطاولوني وأنه لم يوصل ذلك اليه وادعى على المدعى عليه بذلك بمحكمة
المادة الملكية بالصالحية النجمية بالديار المصرية وضمنه له الحاج أبو عبد
الله الباجوري والشمسي محمد الصباغ وال الحاج عمر الخانى وال الحاج ابراهيم
التشيلي الى أن يحضر ما يieżله من ذلك ويطالبه بذلك ويسأله سؤاله عنه
قبل فلتجاب بالاعتراف في ذلك وادعى أنه دفع ذلك للزيني أمين الدين
المذكور مما كان له من جملة ما كان له تحت يده من ديون ومعاملات وتركات
وحوالات^(٥) وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعاً ولم يصدقه المدعى

(٣) الاطليبي نسبة إلى مدينة قليبية التونسية الساحلية الواقعة في أقصى
الساحل الشمالي الشرقي لتونس المطل على البحر المتوسط .

(٤) الدينار : كلمة مشتقة من اللقظة السلطانية Denarius Aureus
وهو اسم وحدة من وحدات السكمة الذهبية عند الرومان . وقد عرف العرب
هذه العملة الذهبية وتعاملوا بها قبل الاسلام وبعده . ويقول المقريزي انه يزن
متقلاً من الذهب . والوزن الشرعي له هو ٢٥ غرام وما زال لفظ الدينار
يطلق على العملة الاساسية في كثير من البلاد حتى الان ، وان كان لا يعني
بالضرورة العملة الذهبية (حسن محمود الشنافعى ، العملة وتاريخها ، القاهرة
١٩٨٠ ، ص ٨٢) .

(٥) حواله : بمعنى تحويل قبض المبالغ ؛ وقد في الوثائق بمعنى الشخص
الم Howell اليه تحصيل مبالغ وضرائب نقية او عينية . (ليلى عبد اللطيف ، الادارة
في مصر في العصر العثماني ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٤٤٥) .

على ذلك وطلوب للمدعى عليه بالبيان على ذلك فابرز من يده حجة مكيليه بالمحكمة المشار اليها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه متضمنة لتصادق الزيني أمين الدين وال الحاج شمس الدين للمدعى عليه على أن آخر ما استحقه الزيني أمين الدين المذكور في ذمة الحاج شمس الدين المدعى عليه من ديون ومعاملات وحوالات وغير ذلك مما هو معلوم عندهما شرعا مبلغا قدره من الفضة السليمانية ستة آلاف نصف ^(٦) للمدعى على ذلك وأقر له بعدم الاستحقاق من الجانبين ثابتة محکوم بها لدى سيدنا الحاكم المشار اليه أحسن الله اليه وذكر أن القدر المدعى به من داخل الحجة المذكورة ولم يصدق المدعى على ذلك وطلوب المدعى عليه بالبيان على ذلك فأحضر كل من الحاج ميلاد بن المرحوم الزيني قاسم بن محمد الغيلوط المغربي الطرابلسي والشمس محمد عبد الجبار بن محمد المغربي الاسفاقسي والنورى على بن المرحوم خليفة بن محمد المعروف بجده والزيني عطيه ابن النورى بن عبد الرحمن المغربي المصمودى وسائلهم للاشهاد له بما يعلمون من ذلك فأدوا شهادتهم لدى سيدنا الحاكم المشار اليه بأن القدر المدعى به عن الثلاثة خيش الكتان داخل في التصادق والابرام المشروح ذلك أعلاه فحيثنى سأل المدعى سيدنا الحاكم المشار اليه بثبوت ذلك والحكم له به الثبوت الشرعى وحكم الله تعالى احكامه بموجب ما ثبت لديه حكما صحيحا شرعا

(٦) نصف فضة نقد تركى عثمانى ، ضرب أولا من الفضة بقيمة قدرها أربع أقبحات « أخشا » وسرعان ما اختلف مركز « الأخشا » باعتبارها الوحدة النقدية التركية العثمانية الصغرى حتى أصبحت الفضة تساوى ١ : ٤٠ من القرش ، بوزن قدره ست عشرة قبحة اي ١١١ جرام ، ثم انخفض وزنها الى ربع ذلك في أوائل القرن الناسع عشر الميلادى ، وقل ما فيها من فضة . ويرافقه اسم الباردة والنفة في عصر الجبرتي اسم « نصف فضة » ، و « مؤيدى » ، وقد كانت هذه العملة وسيلة هامة لتحقيق مرونة العمليات التجارية في مصر (عبد الرحمن نعيمي ، النقود المتداولة أيام الجبرتي ، في كتاب عبد الرحمن الجبرتي ، دراسات ويحوث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٦ ، ص ٥٧٣) .

تاماً معتبراً مرضياً مسيولاً في ذلك مستوفياً شرائطه الشرعية وواجباته المحررة المرعية واعتبار ما يجب اعتباره شرعاً مقتضايا كل ذي حجة صحيحة على حجته أن كانت مع العلم بالخلاف في ذلك وشهاد على نفسه الكريمة بذلك وبه شهد في تاريخه . شهود الحال .

(الوثيقة رقم ٢)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- يوم الاثنين المبارك ثامن عشر رمضان المعمد سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
- وفيه لدى مولانا أفندي دامت فضائله .
- مادة رقم ١٧٥ من ٣٨ .

— موضوع الوثيقة : تاجر مغربي يقاضى رجلاً آخر حول دين بينهما .
ادعى الحاج أحمد الحاج رمضان بن أحمد المغربي التونسي على يوسف بن عبد الله المحتدى من أهل الغلطة أنه يستحق في ذمته مبلغاً قدره من الذهب السلطانى الجديد سبعون ديناراً دفع ذلك له بجزيرة جرباً ليفتدى بها نفسه من الاسر ويطالبه بذلك ويسأل سؤاله قبل فلجانساب بالاعتراف في ثمانيه وثلاثين ديناراً ذهب مشمر وأنه دفع له ثلاثة خواتم ذهب وزوج حلقة ذهب ولو لو ولم يصدق المدعى على ذلك وطولب كل منهما بالبيان فذكر المدعى أن بيده ورقة بخط النصارى وال المسلمين وذكر المدعا عليه والتعمس عنه على ذلك فطلب المدعى من المدعا عليه ما اعترف به

وهو ثلاثة ديناراً وأوقف الثمانية دنانير على الحلف أو الاقامة واعتقل على
وذلك بسجن الشرع الشريف .
شہود الحال .

(الوثيقة رقم ٤)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١) .
- مادة رقم ٢١٧ من ٤٨ .

الحمد لله الواحد القهار يوم الاحد المبارك الرابع والعشرين من
شهر رمضان الم哉م (١٩٥٧ - ١٩٥٠) .

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجرین من المغاربة بشأن تجارة
السکтан .

أشهد عليه الحاج شهاب الدين أحمد الحاج سعيد بن الشهابي أحمد
الشهير بالكلابي المغربي التونسي شهوده الاشهاد الشرعي أنه وصل اليه
من الحاج محمد بن الحاج محمد سعيد الشهير بابن الغراب المغربي
الانفاقى عشرين خيشة كتان زنة ذلك ما قدره من القنطارات (٧) المصرية

(٧) القنطار : وحدة من وحدات الوزن ، وكان حجمه يختلف تبعاً للزمان ،
وكذلك المكان الذي كان يستخدم فيه عملية الوزن . وفي أواخر العصر المملوكي
كان يتراوح وزن القنطار ما بين ٤٥ إلى ٦٦ كيلو جرام ، وفي سنة ١٦٦٥ م وصل
وزنه إلى ١٢٠ كيلو جرام .

Shaw, S.: Ottoman Egypt in the Age of the French Revolution, p. 170.

ثمانية وسبعون قنطاراً ونصف قنطار ونصف قنطار تفينا على الجادة
الوصول الشرعي بالقبض الشرعي وأذنه أن يسافر بذلك بمركب باب أعلى
موسى إلى مدينة اسطنبول ويبيع ذلك هناك بالفقد ومهما أطعمه الله تعالى في ذلك
من ربح ويسره من فائدة بعد إخراج رأس المال والمأون والكلف والاجر
وحق الله تعالى أن وجب كان مقسم بينهما نصفين بالسوية لامزية
لأحدهما على الآخر وعلى الحاج احمد المذكور العمل في ذلك بتقوى الله
تعالى وطاعته في سره وعلانقته وتوافقنا على أن الحاج احمد المذكور لا يتوجه
سوى لمدينة اسطنبول ويعود منها إلى التغر السكتدرى مع سلامة الله
تعالى حسبياً تصادقاً على ذلك التصدق الشرعي فشهد عليهما بذلك في
تاريخه .

شہود الحال

(الوثيقة رقم ٥)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١) .
- في يوم الخميس المبارك ثامن عشرين رمضان سنة تاريخه (١٩٥٧ - ١٩٥٠) .
- وفيه لديه احسن الله إليه .
- ملادة رقم ٢٤٦ ص ٥٥ .

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين تاجر أندلسي وعامل رشيدى حول
استئجاره لقلقطة مركبة الشراعى .

ادعى على بن محمد على الاندلسي على المعلم على بن محمد الفقيه على الجلفاظ الرشيدى أنه استئجاره على جلفظه ^(٨) مركبة الغليون ^(٩) باللغ و هو ومن يستعين به وأنه عمل عنده فيه خمسة و تسعمون يوماً هو و صناعة تسعه أنفار موايمه له بمفرده في كل يوم بسبعينه أنصاف و ثمانين صناع كل صانع بستة أنصاف كل يوم و صبى بتصفيين كل يوم وأنه دفع له أجرته وأجرة صناعه عن المدة المذكورة ماعدى ثمانية وعشرين نصفاً و سأله سوءاته عن ذلك قبل فلاحات بأن وصل اليه ستة عشر ديناراً ذهباً من ذلك ثمانيه دنانير أكروفنه و دينار قابيبي و خمسة دنانير ذهب ببنادقة ^(١٠) على

(٨) كلمة جلفطة محتتها قلقطة وتعنى القيام بحشو الكتان الميلل بالقطران أو التسخين ووضعه بين الواح السفن وذلك لمنع تسرب المياه إلى داخل السفينة ويعرف القائمون بهذه العملية بالقلامطة . (سعاد ماهر : البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية ، دار الكتاب العربي ، ١٩٧٧ : ص ١٧١) .

(٩) المركب الغليون : يجمع على : غلايين و غلاوين . والكلمة مصرية عن الاسبانية Galeon وقد وصفه « دوزى » بأنه نوع من المراكب على الاطراف ، واكتفى يحيى الشهابي « عند التعریف به بأنه قال » ضرب من المراكب الشراعية الاسبانية وتصنفه المعاجم الانجليزية والفرنسية بأنه مركب اسباني ضخم يمتاز بعظم المقدم والمؤخر ، كان يستعمل في الغالب لحمل كنوز مناجم بيرو والمكسيك إلى اسبانيا وذكره « الادعى الطرابلسى » فقال : « فلم تزل والغليون بما يسير حتى رسينا بميناء حيناً بعد خمسة أيام » ، فهو على هذا كلن يستعمل لنقل المسافرين أيضاً . وقد وقع اللفظ في حكايات « الفيلة وليلة » كنوع من المراكب التي تستعمل في القناال وفي نقل المسافرين . (درويش النخللى : السفن الإسلامية على حروف المعلم . دار المعارف : الاسكندرية ، ١٩٧٩ ، ص ١١٢ - ١١٣) .

(١٠) البندقى : نقد ذهب . ذو عيار عال يقرب من أربعين وعشرين قيراطاً ، وهو يناسب إلى مدينة البندقية التي بدأت في ضريه حوالي سنة ١٢٥٢ ، في وقت كانت نقود المالك من الدنانير الذهب قد بدأت تفقد سمعتها العالمية ، بسبب

يد صانع جمبيدي دينارا واحدا والدينار نصفة معه وهم جماعته وخمسة
أنصاف وان من ذلك ستة دنانير من مونته هو وصناعة وباقى ذلك من أجراه
وأجراة صناعة أشهد عليه كل من المدعى والمدعا عليه أنه لا يستحق على
الآخر لسبب ذلك حقا مطلقا ولاشى من ذلك وأن المدعا عليه وصل إلى
أجرته وأجراة صناعة ولم يتلذث لكل منها قبل الآخر حقا مطلقا وبه شهد.

شهود المصال .

(الوثيقة رقم ٦)

- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان (١٩٥٧ - ١٩٥٠ م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٩٥١ م) .
- يوم الجمعة ٢٧ شوال سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠ م) .
- مادة رقم ٤٧١ من ٩٩ .
- موضوع الوثيقة : استئجار عامل للعمل على مركب تبحر من
الاسكندرية الى فزان .

عدم العناية ببنقوتها مع خفض عياراتها وتقارب اوزانها مما دفع شعوب الشرق
وسلطان المماليك الجراكسة الاتقبال على التعامل بالبندقى ، او الدوكات ،
واطلق المؤرخون على هذا النوع من النقود اسم المشخصة للصور الادمية
المنقوطة عليه ، ومن بينها صور القديسين وصور دوج البندقية الذى نسب اليه
النقد دوكات ويشير المقريزى الى أنه منذ سنة ٨١ هـ كثُر تداول الدوكات في
مصر ، وتمتلت بسرع قاتوني حتى ان جمرك اسكندرية اصر على أن يدفع التجار
الاوروبيون قيمة البضائع السلطانية بالسبائك الذهبية او البندقى ، ومعنى هذا
ان البندقى قد شاع تداوله في اسواق مصر متمتعا بشقة كبيرة في مطلع القرن
الخامس عشر الميلادى ، وما جاء العصر العثماني الا وكان البندقى قد تغلغل
كوسقط للمبادلة في كل اقليم مصر . (عبد الرحمن نهى ، النقود المتداولة ايام
الجبرى ، في كتاب عبد الرحمن الجبرى دراسات وبحوث ، القاهرة : ١٩٧٦
من ٥٧٧) .

ادعى دردیدر بن عمر بن دیاب السليمانی على الحاج على بن محمد
ابوا عبد الله النزالی الحرام أن أبو جازية استأجره من شعر اسكندرية
إلى فزان بخمسة دنانير ذهبا سلطانياً جديداً وأنه توجه صحبته إلى القرب
من فزان، فنحو خمسة عشر يوماً فمات أبو جازية فاستمر على موجوده
إلى أن أوصله إلى شركائه بفزان وأن شراكاه وصلوا موجوده إلى المدعى
عليه ويطلبه بأجرته من موجوده ويسأله عن ذلك فسئل فأجاب
بالإنكار فطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن له بينة يحضرها عند
تاریخه .

(الوثيقة رقم ٧)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
 - دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
 - عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
 - من ١٤ شعبان سنة (٥٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
 - إلى ١٧ شعبان سنة (٥٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
 - ٢٩ شوال سنة (٥٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
 - مادة رقم ٤٨٤ ح ١٠٣ .
- موضوع الوثيقة : مغربي يبيع عبداً بستة عشر ديناراً بالاسكندرية
ادعى أحمد الحاج عمر بن الحاج عرف بالجاموس على الشهابي
أحمد محمد أبو الكرم المغربي التونسي المعروف بشيخ الزاوية أنه سلمه
عبدًا أسود ليبيعه له من مدة أربعة أيام تقدمت على تاریخه ويطلبه بالعبد
المذكور ويسأله عنه فسئل فأجاب بالاعتراف في ذلك وأنه أذنه في بيعه

بستة عشر دينارا وأنه باعه بذلك ولم يصدقه المدعى على ذلك وطلوب
المدعى عليه بالبيان عن ذلك فذكر أن لا بينة له والتمس عنه على ذلك محقفو الزم
دفع العبد المذكور .

(الوثيقة رقم ٨)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبايعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الترعية .
- من ١٤ شعبان سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- يوم الثلاثاء ١٩ محرم سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- مادة رقم ١٨ ص ٩٢٠ .
- موضوع الوثيقة : تاجر رشيدى يتقاضى مع تاجر مغربى حول
مبلغ من المال بينهما .

ادعى مساعد بن سليمان بن عينوس الرشيدى على بن
محمد عبد العزيز المغربى الجربى عرف اللجيمى أنه يستحق عليه من الذهب
المحمر ستة وعشرون دينارا حصته التى خصته معه فى سفرة من التفسير
السكندرى الى جزيرة جربا اسوة امثاله من الريسا ويطالبه بذلك ويسأل
سواله فسائل فأجاب بأن حصته سبع دنانير وربع دينار وأنه دفع له ذلك توزيعاً
ثلاثة أرباع دينار وأنكر مادى ذلك وطلوب المدعى بالبيان على ذلك فذكر أن
له بيته لتشهد على أقراره بأنه طالبه بحصته فقال له عندى تسعة دنانير
دفعها له بالسفر السكندرى وخرج ليحضرها ثم وقف بينهما متوسطاً صلح
أصلح بينهما على أن كل منهما لا يستحق على الآخر بسبب هذه الدعوى

ولا غيرها حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا دعوى ولا طلبا بوجه ولا سبب ولا فضة ولا ذهب ولا جر ولا ثمنا ولا مثمنا ولا قبضا ولا قبضا ولا قرض ولا اقتراض ولا موهوما ولا وديعة ولا عادية ولا مات تصح به الدعوى ولا ما تتعامر به البينة ولا من قل ولا جل عما مضى من الزمان والى تاريخه وان الرئيس مساعد المذكور لا يستحق في الدفع الكبير الذى بالمركب المشترك بين الرئيس مساعد وبين ورثة الحاج محمد برکات حقا مطلقا والتزم الرئيس على أنه متى قام صالح بن أحمد الجرجي اللحيمى مطالب الرئيس مساعد المذكور بحق مالى نشا سببه عن مارمى له بالبحر من الفرغ وثبت ذلك عليه بطريقة الشرعى والزلم بدفعه فدفعه كان على الرئيس على المذكور القيام له بذلك من ماله وقبلت حالة بالغا ما بلغ الزاما شرعا خاليها عن العوض والشرط المقصد لذلك مقرأ على أنه وقدرته على ما التزمه وقبل منه ذلك الرئيس مساعد القبول الشرعى وتصادقا على ذلك التصادق الشرعى فشهد عليهم بذلك وبالتوكيل في ثبوته وطلب الحكم به توكيلا شرعا في تاريخه شهود الحال .

(الوثيقة رقم ٩)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ — ١٩٥٠م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ — ١٩٥١م) .
- يوم الاحد ١٩ صفر الخير سنة (٩٥٨ — ١٩٥١م) .
- مادة رقم ١٠١٦ ص ٢٣١ .
- موضوع الوثيقة : زواج مصرى بابنة مغربى بالاسكندرية .

تروج سالم بن خضر بن شحاته الدمنهوري المعروف بابن هاجر بمخطوبته سليمه البكر البالغ ابنة على بن يحيى المغربي الجرجي على كتابه الله العظيم وسنة نبيه الكريم وصادق جملته من الذهب السلطاني الجديد سبعة دنانير ومن الفضة الجديدة المليمانية مايتا نصف بيبيان الحال من من ذلك مبلغ الذهب أتعترف والد الزوجة المذكور يقبضه وذلك خمسة دنانير الائمانية عشر نصفا والباقي على حكمه والباقي مبلغ الفضة مقطط لها عليه في مدة عشرين سنة قسط كل سنة في سلخها عشرة انصاف الى الوفا ان شاء الله تعالى زوجها منه بذلك والدها المذكور بعد الوضوح الشرعي بشهادة كل من محمد منصور بن يفلح الجرجي وعمر بن سليمان بن صالح الجرجي ترويجا شرعيا وقبله الزوج المذكور لنفسه القبول الشرعي وتوافق للزوج المذكور أن يكسوا زوجته المذكورة كسوة اللستا وكسوة المصيف ورضاها لها والدها المذكور بذلك وبه شهد في تاريخه . شهود الحال .

(الوثيقة رقم ١٠)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان (٥٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
- الى ١٧ شعبان (٥٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- يوم الجمعة المبارك ١٠ ربيع الثاني سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- مادة رقم ١٣٩٢ ص ٣٢٧ .
- موضوع الوثيقة : مغربي يثبت حقه في حل قضية لدى مصانع بيهودى .

ادعى جمعه بن منصور بن عبد الله المغربي الجرجي رايس قلاع
مركب الرئيس سليمان ان كان معه تحكية فضة زنتها عشرون درهما (١١)
وقيعت منه بباب البحر منذ شهر مقدم على تاريخه وأنه وجدها بيد غلام
بن عبد الله بن محمد الدلال المعروف بشعت يبيعها بسوق باب البحر
يوم تاريخه ويسأل سواله عن ذلك فسئل فأجاب بأنه شميلا اليهودي الصاليف
دفعها له وطلب المدعى بالبيان على ذلك فلحضر يحيى بن يونس بن سالم
المغربي الجرجي — عبد الرحمن بن محمد بن عيسى المغربي الجرجي وسألهما
للإشهاد له بما يعلماه في ذلك فاديا شهادتهما بأن التحكية المذكورة جارية
في ملك المدعى المذكور إلى تاريخه وأنها صاعت منه من المدة المذكورة ٠

(الوثيقة رقم ١١)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية ٠
- دفتر عمليات رقم (١) ٠
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية ٠
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ — ١٥٥٠ م) ٠
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ — ١٥٥١ م) ٠
- يوم الجمعة ١٠ ربیع الثانی (٩٥٨ — ١٥٥١ م) ٠
- مادة رقم ١٣٩٥ ص ٣٢٨ ٠

(١١) الدرهم : وحدة من وحدات السكة الإسلامية الفضية . وهو مشتق من اسم الدراخمة اليونانية ، وقد استعاره العرب في المعاملات من الفرس اذ كانت الأقاليم الشرقية من العالم الإسلامي تتعامل بالدرامون الفضية عند الفتح العربي لها ، ويزن الدرهم ١٥ قيراطا ، والقيراط اربع جبات والجبة واحدة الحب وتمعنى بذور الشعير . ويبلغ وزنه الشرعي ٢٩٧ جراما . ولازالت بعض البلاد العربية مستعمل الدرهم كعملة أساسية الى اليوم وإن كانت دراهم غير فضية (حسن محمود الشافعى ، العملة وتاريخها من ٨٤) .

— وفيه لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكتامي المالكي أليهـ الله
تحسـالـي .

— موضوع الوثيقة : مغربي يبيع حمارا بدينارين ذهبا أو كرونة .
ادعى سعيد بن يحيى بن عبد الله المغربي الجبالي على المعلم فحضر
الدين ابن الحاج أبو الخير الكناوى أنه وضع يده له على حمار أشوه بغیر
طريق شرعى مدة سبعة أشهر ويطالبه بذلك ويسأل سواله عنه فسئل: فأجاب
بأنه باعه الحمار المذكور بدينارين ذهباً كرونياً ولم يصدقه على ذلك وطول
المدعا عليه بالبيان فحضر الحاج محمد بن عبد الله من أهل مستهور .
المعروف بأبن فارس وسأله للاشهاد له بما في ذلك فادى شهادته بأنه ابتعى
منه الحمار المذكور بـ الدينارين المذكوره وصدقه على ذلك واقبضه الدينارين
المذكورة وخرجا على ذلك حرر ذلك في تاريخه شهود الحال .

(الوثيقة رقم ١٢)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبابيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١) .
- يوم الجمعة المبارك ١٧ ربيع الثانى سنة ١٩٥٨ - ١٩٥١ م .
- مادة رقم ١٤٣٧ ص ٣٣٩ .

— موضوع الوثيقة : اتفاق بين جزائري ويهودى على تشكيل مركب
للسفر إلى المغرب .

تصادق الرئيس اسماعيل بن سليمان بن ناصر الشهير بأبن بلـلـ
الجزائـرـي والمعلم اسحاق ابن اسرائيل بن يحيى اليهودى الزبان الوكيل

الشرع عن المعلم لبراهيم كاستروا العامل بالشعر يكن مصادقة شرعية
عرف معناها وما يترتب عليها شرعا على أن جميع المركب الغليون المبكم
بالعدد والمدافع دلالة مجاري الريح على العادة المعلوم عندهما شرعا بين
الرئيس اسماعيل والمعلم يهود الموكل المذكور إثلاثا ما هو للرئيس اسماعيل
الثالث وما هو للمعلم يهود الموكل المذكور ثلثان وأن جميع ما صرف على
المركب المذكور إلى تاريخه صرف من مال كل منها لم يتأخر لأحد منها قبل
الآخر بسبب ذلك ولا بسبب القومانية^(١٢) التي صرقت برسم السفر
إلى بلاد المغرب وقدرها ألف نصف بيبيان واربعمائة نصف وخمسة وستون
نصفا حقا مطلقا ولا استحقاقا ولا شئ قل ولا جل لما مضى من الزمان والى
تاريخه وإن المعلم يعقوب بن اسحاق بن موسى عرف بابن مشهيله اليهودي
الربان وكيل على حصة المعلم لهود المذكور وقبض ما ينوبه من الاجرق القومانية
على جاري العادة وإن لا يفعل أحد من الرئيس اسماعيل والموكيل المذكور
إلا بمعرفة الآخر وأقر الرئيس اسماعيل المذكور الاقرار الشرعي ان في
ذمته للمعلم يهود المذكور بعد كل حساب من الذهب السلطاني الجديد مائتا
دينار ثنتان وخمسة وسبعون دينارا وأنه دفع من ذلك عن المعلم يهود المذكور
بجزيرة جربا من ممتلكاته وجوار من الذهب المشحر مائة دينار واحد وثلاثة
دنانير تأخر عليه باقى ذلك حسبما تتصادقا على ذلك التصادق الشرعي فشهد
عليهما بذلك في تاريخه شهود الحال .

(الوثيقة رقم ١٣)

— أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .

— دفتر سجل مبايعات رقم (١) .

(١٢) القومانية : تموين يمد لحجاج بيت الله الحرام من غلال ويقسّط
ودقّيق وغير ذلك .

- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠ م) .
- الى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١ م) .
- يوم الاثنين ١٣ جمادى الثانى سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١ م) .
- ملادة رقم ١٧٣٢ من ٤١٣ .
- موضوع الوثيقة : تأجير وكالة بسوق باب البحر بالاسكندرية لاحد التجار المغاربة .

أجر الناصري محمد المرحوم الجناب العالى البهيرى حسن بن المرحوم الجناب العالى الامير سنان بك أمير اللوا السلطانى بالشفر كان تغمده الله تعالى بالرحمة والرضوان الحاج احمد محمد ابو الكرم المغربي التونسي المعروف بشيخ الزاوية ماذكر أنه جار في استحقاقه وتحت نظره قوله ايجاره وقبض اجرته بالطريق الشرعى وصدقه على ذلك المستأجر المذكور التصديق الشرعى وذلك جميع الوكالة الكبرى الكامنة داخل الشفر بسوق بباب البحر المعروفة بوكالة جد المؤخر للمذكور المشتملة على حوامل سفلية وعلوية عدتها ستة وخمسون حacula وخمسة حوانين مستخرجة من الوكالة المذكورة الموجزة على المستأجر المذكور مدة سابقة على تاريخه آخرها سلخ شهر تاريخه المعلوم ذلك عندهما العلم الشرعى النافى للجهالة باعترافهما بذلك اجارة شرعية لينتفع المستأجر المذكور الانتفاع الشرعى كيف شاعلى الوجه الشرعى لمدة ثلاثة سنوات مستقبلات تلك مدة تواجره أولها شهر رجب الاتى بعد دفعه شهر تاريخه باجره مبلغها عن ذلك من الفضة الجديدة السليمانية معاملة تاريخه بالديار المصرية ثمانية آلاف نصف واربعمائة نصف يقوم له باجره كل سنة على ثلاثة أقساط متساوية في المدة والأجرة ماهى للموجر المذكور الثنان وما هو لأخته شقيقته تاج الملك

المرأة الثالث مقرا على قدرته على ذلك على حكم واعترف المستأجر المذكور أنه مستمر وضع يده على الوكالة المذكورة الاستمرار الشرعي بتصادقها على ذلك واعترف الموجر المذكور بقيمه من المستأجر المذكور من الاجرة المذكورة معجلا ستمائة نصف وخمسة عشر نصفا حسبما اعتراض في ذلك من الذهب السلطانى الجديد خمسة عشر دينارا القبض الشرعى وتصادقا على ذلك ووكلا في الدعوى به وثبوته وطلب الحكم به التوكيل الشرعى فشهد عليهم بذلك في تاريخه . شهود الحال .

(المجموعة الوثائقية الثانية)

وثائق محفوظة بأرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية وتخص محكمة الاسكندرية الشرعية ولم يسبق نشرها وهى تثبت وجود نشاط تجاري نسبي كانت تقوم به الخاليات الاوروبية وبعض مواطنى جزر البحر المتوسط بالاسكندرية فى منتصف القرن العاشر المجرى والحادي عشر الميلادى ، فى الفترة من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠) إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١) .

(الوثيقة رقم ١٤)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبایعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١) .
- يوم السبت ٢١ من شوال سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠) .
- لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكمامى المالكى أيده الله تعالى .

— مسادة رقم ٤٣٥ ص ٩٤ •

— موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يشتري كمية من العسل من تاجر
قبرصى •

ادعى الحاج أبو الخير بن محمد على عرف بابن عويشات الزيارات
بالتشرى على نقولا بن جرجى الفرنجى القبرصى أنه ابتاع منه ثمانية عشر
درف عسل نحل زنة ذلك عشرة قناطير زايد ناقص بخمسين دينارا ذهبا
وأنه بعد صدور البيع منه باع ذلك لشخص آخر ويطالبه بذلك ويسأل
سواله عنه فسييل فأجاب بالإنكار وطلب من المدعى البيان على ذلك وأحضر
الحاج أحمد بن محمد ومحمد بن أحمد ناصر الدين الفراج وسائلهما للإشهاد
له بما يعلماه في ذلك فاديا شهادتهما طبق الدعوى وألزم المدعى عليه بدفع
العسل وألزم المدعى بدفع الثمن وخرج على ذلك شهود الحال •

(الوثيقة رقم ١٥)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية •
- دفتر سجل مبابيعات رقم (١) •
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية •
- من ١٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠ م) •
- إلى ١٧ شعبان سنة (١٩٥٨ - ١٩٥١ م) •
- يوم الثلاثاء ٢٤ شهر شوال سنة (١٩٥٧ - ١٩٥٠ م) •
- مسادة رقم ٤٥٦ ص ٩٦ •
- لدى مولانا افندي دامت فضائله •
- موضوع الوثيقة : تاجر مصرى يبيع بهار وقرنفل وزنجبيل وجوزة
طيب وقرفة لتاجر قبرصى •

تصادق الخواجا شمس الدين محمد السعودي المصري وجوان ابن كهيل الفرنجي الكتيلان على صحة المقد الصالحة بينهما في تاسع شهر تاریخه على أن على الخواجا شمس الدين المذكور مرجان أربع صناديق ويسترد نصف الكوم الذي بالحاصل معاوضة ذلك الثلث زنجبيل شرقى والثلث قرنفل وأربعة قراريط جوزة طيب وأربعة قراريط قرفة سعر كل أربع قناطير وربع من البهار المذكور بقططار مرجان قصف وكل قنطارين وربع من البهار بقططار يسترد وكل قنطار ونصف زنجبيل بقططار من الثلاثة اصناف البهار والفرنفل ان عجب الفرنجي أخذه وان ما حجبه عمل منه الصاج وتوافقاً على أن الخواجا شمس الدين يدفع البهار المذكور قبل مضي ثلاثين يوماً ومتى مضت الثلاثين يوماً ولم يدفع ذلك كان يشتري كل قنطار بمائة دينار ويدفع للخرااني ذلك وان يدفع له من باطن البهار المذكور خمسة وستون رطلان من العود كل رطل بثلاثة دنانير ونصف دينار حسبما توافقاً وتراضياً على ذلك كله التراضي الشرعي وذلك بحضور سيدنا الشيخ زين الدين برکات بن فتح الدين الحنفي والخواجا أبو الغيث والخواجا نور الدين القباقبي والحضره المسامية المعلم يوسفين المعلم موسى بن اسحاق اليهودي الربان العامل بالشغر وكلتا دموا قنصل طيبة الفرانسه والكتيلان بالشغر جرى ذلك كذلك شهود الحال .

* * *

(الوثيقة رقم ١٦)

- أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبايعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (١٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .

- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
— يوم الثلاثاء ٢٩ من شهر شوال عام سبعة وخمسين وتسعمائة .
— مادة رقم ٢٧٠ ج ٦٠ .
— موضوع الوثيقة : اتفاق بين ربان يهودي وقنصل طائفة الفرنسيين
في الاسكندرية حول قرض بينهما وتجارة لكتان .

ابشهد عليه المعلم داحمين بن خليفة بن مسعود اليهودي البريلان عرف
بالذكر شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبس وتسليم من كلتا دموا النصراني
الفرنجى قنصل طائفة الفرنج الفرنسة والكتيلان بالشغر مبلغاً قدره من
الذهب السلطانى الجديد معاملة تاريخه بالديار المصرية اربعون دينار
وأربعة عشر دينار القبس والتسليم الشرعيين وذلك آخر ما يستحقه في ذاته
من قرض شرعى وثمن كتان ومعاملة بينهما قبل تاريخه بمسنودات
شرعية وسجلات حكمية وأوراق بخط يد القنصل المذكور وغير ذلك مما تقدم
على تاريخه والى تاريخه حسبما شهد بذلك مكتوب التصادق المعترف
الفرنجى المكتب بالصالحية النجمية بمحكمة السادة الملكية لدى سيدنا
الشيخ شرف الدين بن زكريا يحيى القرامي المالكى خليفة الحكم العرض
بالديار المصرية ايد الله تعالى أحکامه وأحسن اليه المعين باقرار يعد من
الاستحقاق الثابت المحكوم فيه الموجب لدى سيدنا الحاكم المشار إليه
أعلاه المؤرخ لسابع عشر شهر الله المحرم الحرام من سنة تاريخه بتصديق
محمد عطية بن رشيد المعروف بابن عرليس الترجمان الوكيل الشرعى عن
كلتا دموا القنصل المذكور الثابت توكيله عنه لدى سيدنا الحاكم المشار
إليه بشهادة كل من منصور بن أحمد سلامة المعروف بابن الهليش وابراهيم
بن موسى الانشادى له على ذلك وعلى أن موكله كلتا دموا المذكور وصل
إلى مكان تحت يد المعلم داحمين المذكور وهو أربعة شكلين زهر بنفسج

وستة وعشرين خرقه جوخ دكىه وقفه مرجان وثلاثة وعشرين ذراع قرمزي
كمها بالذراع الكبير وثمانية وستين ذراع بالذراع الصغير وغلمه الذى
كان مرتهنا تحت يد العلم داحمين المذكور على المبلغ المذكور حسبما شهد
بذلك الفصل المكتوب بظاهر المستند المذكور بالمحكمة المشار إليها أعلاه
المؤرخ بتأسع عشرين من صفر سنة تاريخه الوصول الشرعى بالقبض
الشرعى ويرى ذمة كل من داحمين وكلتا دموا للاخر من ذلك ومن غيره
البراء الشرعية بتصادق داحمين والوكيل المذكور على ذلك التصادق الشرعى
فشهد عليهم بذلك وبالتوكيل في ثبوته وطلب الحكم به توكيلا شرعا في
تاريشه وخسبنا الله ونعم الوكيل شهود الحال .

* * *

(الوثيقة رقم ١٧)

- أرشيف الشهر العقارى بالاسكندرية .
- دفتر سجل مبايعات رقم (١) .
- مادة رقم ٥٤ ص ١١٤ .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ١٤ شعبان سنة (١٥٥٠ - ١٩٥٧) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (١٥٥١ - ١٩٥٨) .
- يوم الأربعاء ١٠ شهر ذى القعدة الحرام سنة (١٥٥٠ - ١٩٥٧) .
- لدى سيدنا الشيخ شمس الدين الكاتب المالكى أيده الله تعالى .
- موضوع الوثيقة : خلاف بين بخاريين في الاسكندرية من جزيرة روتس .

ادعى هانوا بن اليو النصرانى الروديسى على يانى بن جرجى
النصرانى الروديسى أيضا أنه خدم معه في مركب هو مقدم رجالها مس

مدة ثلاثة سنوات وأنه وضع يده على أجرته منها في السفرة الأولى
أربعمائة عثماني وثلاثون عثمانى وفي السفرة الثانية خمسة دنانير ذهبا
بندقيا والسفرة الثالثة أربع دنانير ذهبا بندقيا ويطالبه بذلك ويقال
سواله عنه فسأله فأحاب أنه سافر معه سفرة إلى إسطنبول خصه فيما
بضاعية عثمانى وضع يده عليه في دين له عليه ثم أتعرف له بثلاثين عثمانى
زائد على ذلك وطلب من المدعى البيان على ذلك فذكر أن لا بيته له والتمنى
عنه على ذلك مخلف والزم الدعا عليه بدفع ذلك وخرج على ذلك .

شود الحمال .

(الوثيقة رقم ١٨)

- أرتبطة الشبر العذري بالاسكندرية .
- دفتر سجل مابعدت رقم (١) .
- عملية محمد اسكندرية شرعية .
- من ٢٤ سبعين سنة (٥٩٥٧ - ١٥٥٠) .
- إلى ٢٧ سبعين سنة (٦٠٦٨ - ١٥٥١) .
- يوم الجمعة ١٥ بيع الثاني سنة (٥٩٥٨ - ١٥٥١) .
- مادة رقم ١٣٩٤ ص ٣٢٨ .
- موضوع الوثيقة : تاجر من البندقى يستدين ثلثين دينارا من
الذهب البندقى من أحد المتادقه فى اسكندرية .

أشهد عليه مامانى رئيس المذكر اعلاه شهود الاشهاد الشرعي أنه
قبض وتسليم من يده لى جوان زاده العرنجى البندقى مبلغها فتدره
من الذهب البندقى الشخص ثلاثون دينارا قبضا وتسليم شرعى اعتراضه
ذلك الشهود لا يخواى الشرع بذلك مما نه فى دمه من فرض شرعى

سابق على تاريخه افترضه منه بجزيرة جربا جملة اصله سبعون دينارا من الذهب الموصوف أعلاه وتتأخر له باقي ذلك وهو اربعون دينارا نظرة ان يقوم له بذلك عند مضي خمسة وعشرون يوما وضمه زبيتو ابن نسيان البندقى في عشرين دينارا من ذلك وطما زين قوله الترجمان في ثلاثة عشر دينارا ويأكلموا ابن فرانس البندقى في خمسة دنانير الضمان الشرعى في الذمة والمال الضمان الشرعى المقبول بتقادهم على ذلك التقاد الشرعى فتشهد عليهم بذلك في تاريخه شهود الحال .

٤٣ ٤٣ ٤٣

(الوثيقية رقم ١٩)

- أرشيف الشهير العقارى بالاسكتدرية .
- دفتر سجل مبابيعات رقم (١) .
- عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
- من ٢٤ شعبان سنة (٩٥٧ - ١٥٥٠ م) .
- إلى ١٧ شعبان سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- ... يوم الجمعة ١٠ ربیع الثانی سنة (٩٥٨ - ١٥٥١ م) .
- مادة رقم ١٣٩٣ ص ٣٢٨ .
- موضوع الوثيقة : مواطن عثماني يرد مبلغا لبحار من البندقى
قدره ١٤٥ دينارا من الذهب البندقى .

اشهد عليه مامى رايس بن قاسم بن حمزة الازمي شهوده الاشهاد الشرعى أنه قبض وتسليم من لودان سوا بن برواميتو الفرنجى البندقى مبلغا قدره من الذهب البندقى الشخص مالية دينار وخمسة وأربعون دينارا قبضا وتسليم شرعىن وذلك هو القدر الذى كان أقرضه له بجزيرة

جربا من قبل تاريخه وبريت ذمته له من ذلك البراء الشرعية باعترافه بذلك
لشهوده وتصادقا على ذلك التصادر الشرعي فشهادت عليهما بذلك في تاريخه
شهود الحال .

(الوثيقة رقم ٢٠)

— أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية .
— عملية محكمة اسكندرية الشرعية .
— يوم الثلاثاء ١٧ ربیع الثانی (٥٩٥٨ - ١٩٥١ م) .
— مادة رقم ١٣٦٤ ص ٣٢٠ .
— موضوع الوثيقة : مملوك حبشي يطالب مواطن قبرصى بتسعة
دنانير في الاسكندرية .

ادعى مرجان بن عبد الله الحبشي الجنس مملوك على رئيس على
طماز وابن حاكموا الفرنجى القبرصى أنه يستحق في ذمته مبلغاً قدراً من الذهب
السلطانى الجديد معاملة تاريخه تسعة دنانير بدل قرض شرعى للاستحقاق
الشرعى ويطالبه بذلك ويسأله عنه فرسيل فاجاب الأعتراف في ذات
وأن له تحت يد رئيسه اجرته من اضاليا إلى الشغر وتوافقاً على أن يقبضه
من ذلك خمسة دنانير ويؤخر الباقى إلى أن يجتمع مع رئيسه ويحرر
حصته وخرجا على ذلك شهود الحال . وحضر مرجان المذكور واعترف
أنه وصل إليه جميع المبلغ المذكور وهو التسعة دنانير المذكورة الوصول
الشرعى بالقبض الشرعى وبريت ذمته له من ذلك البراء وذكر أن المدعا
عليه يستحق اجرته عند محمد بن كان الحنفى الرئيس المذكور سنتين
نصفاً فشهادت عليه بذلك في ثالث عشر ربیع الثانی سنة تاريخه شهود الحال .

ثيت المصادر والمراجع

أولاً : باللغة العربية

(١) وثائق لم يسبق نشرها

— أرشيف الشهر العقاري بالاسكندرية ، محكمة اسكندرية الشرعية
سجل مبانيات رقم (١) ، من ٢٤ شعبان ١٩٥٧ م إلى ١٧ شعبان
١٩٥٨ م — ١٥٥١ م

ب) مخطوطات :

— ابن داعر ، عبد الله بن صلاح الدين بن داود (ت سنة ١٠٠٧ هـ)
— (١٥٩٩ م) : « الفتوحات المرادية في الجهات اليمانية » مخطوطة
مصورة على ميكروفيilm محفوظة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت
رقم ٣٥٦ . وهي مصورة عن الاصل المحفوظ بمكتبة راغب باشا باستانبول
تحت رقم ٩٧٩ . وتتكون من جزئين في ثلاثة مجلدات ، وتنتناول تاريخ
اليمن منذ القدم حتى عهد السلطان العثماني مراد الثالث (١٥٧٤ — ١٥٩٥ م)

ابن الدبيع ، عبد الرحمن بن على بن محمد الشيباني الزبيدي الشافعى
(٨٦٦ — ١٤٦١ م) و (١٥٣٧ — ١٩٤٤ م) : « الفضل المزيد على بنيية
المستفید في اخبار مدينة زبيد » ، مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب
بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧ ح ، هي مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ ،
وتنتناول تاريخ اليمن في الفترة المتدة بين ٩٠١ — ١٤٩٥ / ٥٩٢٣ —

١٥١٧ .

— قرة العيون في اخبار اليمن الميمون « مخطوطة محفوظة بدار

الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٢٤ تاريخ وتنقاول تاريخ اليمن حتى نهاية
الدولة الطاهرية في سنة ٥٩٣٣ (١٥١٧ م) .

ابن ایاس ، محمد بن احمد : بداع الزهور في وقائع الدهور ،
خمسة اجزاء ، حققتها وكتب لها المقدمة والفهارس محمد مصطفى ، الهيئة
المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٨٤ .

— ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد : المقدمة لكتاب العبر وديوان
المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى
السلطان الاكبر ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ١٩٨٢ .

— بامفرمه ، أبو محمد بن عبد الله الطيب بن عبد الله (ت ٥٩٤٧
— ١٥٤٠ م) : قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر ، مخطوطه رقم ٨٨
بمكتبة بنى جامع باسطنبول ، مصور برقم ١٦٧ تاريخ بدار الكتب
بالقاهرة .

— عيسى بن لطف الله بن المطهر بن الامام شرف الدين يحيى (ت
٩١٤٠ هـ - ١٩٣٨ م) : « روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتن
والفتح » مخطوطه مصورة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٩٠٨٧
، وهي مصورة عن نسخة الدار رقم ١١ تاريخ م ، وتقع المخطوطة في
ثلاثة اجزاء وتنقاول تاريخ اليمن منذ مطلع القرن (١٦ - ١٠ هـ - ١٥٨٠ م) .

— قطب الدين النهرواني ، محمد بن احمد الحنفى المكى ، مفتى مكة
في عصره المتوفى سنة ٥٩٨٨ - ١٥٨٠ م : « البرق اليماني في الفتوح
العثمانى » مخطوطه محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ٢٤١٤ تاريخ
وتنقاول تاريخ اليمن منذ بداية القرن العاشر الهجرى حتى نهاية

حملة سنان باشا الوزير على اليمن ، وقد أشرف على نشر المخطوطة محمد الجامس لأول مرة عام ١٩٦٧ .

— الاعلام بأعلام بلد الله الحرام ، القاهرة ، المطبعة العسامة العثمانية ، ١٠٢٣ هـ (١٨٨١ م) .

— الموزعى ، شمس الدين عبد الصمد بن اسماعيل بن عبد الصمد نائب الشريعة في مدينة تعز . لم يعرف تاريخ وفاته ويرجح أنه كتب مخطوته في عهد السلطان عثمان الثاني (١٦١٨ - ١٦٢٢ م) «الاحسان في دخول اليمن تحت ظل عدالة آل عثمان» مخطوطة مصورة محفوظة بدار الكتب تحت رقم ٢٣٧٩ وهي منقولة من نسخة الميكروفيلم المحفوظ بمتحف المحفوظات العربية التابع لجامعة الدول العربية ، الميكروفيلم مصوّر من نسخة مكتبة على أمير باستانبول .

— يحيى بن الحسين بن الامام القاسم بن محمد (ت سنة ١١٠٠ - ١٦٨٩ م) : «أنباء أبناء الزمن في التاريخ اليمن» مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة تحت رقم ١٣٤٧ تاريخ ، وتناول عرض الاحداث منذ الهجرة النبوية حتى عام ١٠٥٦ هـ (١٦٣٧ م) .

ج) بحوث ومؤلفات منشورة :

— ابراهيم شحاته حسن (دكتور) :

— وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب ٥٩٨٦ - ١٥٧٨ م قراءة تاريخية عبر علاقات المغرب الدولية بالقرن السادس عشر الميلادي ، دار الثقافة - الدار البيضاء - ١٩٧٩ .

— اطوار العلاقات الغربية العثمانية ، قراءة في تاريخ المغرب عبر خمسة قرون (١٥١٠ - ١٩٤٧) ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، ١٩٨١ .

- ابراهيم على طرخان (دكتور) : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة (١٣٨٢ - ١٥١٧) ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٠ .
- اسماعيل سرهنث : حقائق الاخبار عن دول البحار ، ج ٢ ، الطبعة الاولى ١٣١٤ .
- أحمد حسين شرف الدين : اليمن عبر التاريخ ، من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن العشرين ، الطبعة الاولى ، مطبعة السنة الحمدية القاهرة ١٩٦٣ .
- احمد مختار العبادي (دكتور) : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس الاسكندرية ١٩٦٨ .
- بانيكار ، ك ٢٠ م : آسيا والسيطرة الغربية ، تعریف عبد العزيز جاويه ، ومراجعة أحمد حاکی ، دار المعارف بالقاهرة .
- توفيق استندر (دكتور) : نظام المقايسة في تجارة مصر الخارجية في العهد الوسيط ، بحث مستخرج من المجلد السادس من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٥٧ .
- بحوث في التاريخ الاقتصادي (مترجم) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٦١ .
- الجغرافي ، عبد الله بن عبد الكريم : المقتطف من تاريخ اليمن ، مطبعة الحلبي ، القاهرة ١٩٥١ .
- جلال يحيى (دكتور) : المغرب الكبير ، العصور الحديثة وهجوم الاستعمار ، الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٦ .

- جيان : وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقيا الشرقية ، نقله إلى العربية يوسف كمال ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٢٧ .
- جيرار (ب . س .) : الحياة الاقتصادية في مصر في القرن الثامن عشر ، وصف مصر ترجمة زهير الشايب ، مكتبة الخاتم ، القاهرة ١٩٧٨ .
- حامد سلطان (دكتور) : القانون الدولي العام في وقت السلم ، القاهرة ١٩٦٢ .
- حسن عثمان (دكتور) : تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٢ - ١٧٩٨) في المجمل في التاريخ المصري — القاهرة ١٩٤٢ .
- زكي صالح (دكتور) : مجمل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، من مطبوعات معهد الدراسات العربية العالمية التابع لجامعة الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦ .
- سعاد ماهر (دكتوره) : البحرية في مصر الإسلامية وأثارها الباقية ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر .
- سعد زغلول عبد الحميد (دكتور) : الآثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكدرى في العصور الإسلامية الوسطى ، ضمن أبحاث مجتمع الاسكندرية عبر العصور ، جامعة الاسكندرية ، ١٩٧٥ .
- سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) : مصر في عصر دولة سلاطين المماليك البحرية ، القاهرة ١٩٥٩ .
- المجتمع المصري في عصر السلاطين المماليك ، القاهرة ١٩٦٢ .
- صور من مجتمع القاهرة في العصور الوسطى ، محاضرة القيت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد الثامن عشر ، ١٩٧١ .

- التدهور الاقتصادي في دولة سلاطين المماليك (٨٧٢ - ٩٢٣ /)
- (١٤٦٨ - ١٥١٧) في ضوء كتابات ابن ابياس ، الندوة التي نظمتها الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بالاشتراك مع المجلس الاعلى لرعاية الفنون والاداب والعلوم الاجتماعية ٢١ - ١٩٧٣ دیسمبر .
- العصر المملوكي في مصر والشام ، الطبعة الثانية ، دار النهضة العربية القاهرة ١٩٧٦ .
- السيد مصطفى سالم (دكتور) : الفتح العثماني الاول لليمن ١٥٣٨ - ١٦٣٥ ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٦٩ .
- شارل ديل : البندقية جمهورية الاستقرار ، تعریف احمد عزت عبد الكريم وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ .
- شوقى عطا الله الجمل (دكتور) : المغرب العربى الكبير فى العصر الحديث (ليبيا ، تونس ، الجزائر ، المغرب) ، ط١ ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ١٩٧٧ .
- صلاح احمد هريدى على (دكتور) : دور الصعيد فى مصر مصر العثمانية (١٤٦٨ - ١٥١٧ / ٩٢٣ - ١٢١٣) ، دار المعارف الاسكندرية ١٩٨٤ .
- الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة رشيد في العصر العثماني دراسة وثائقية ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلدان الثلاثون والواحد والثلاثون ، ١٩٨٣ - ١٩٨٤ .
- صلاح العقاد (دكتور) : التيارات السياسية في الخليج العربي . مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ، ١٩٦٥ .

— المغرب العربي ، دراسة في تاريخه الحديث وأوضاعه المعاصرة ،
الجزائر وتونس ، المغرب الاقصى ، مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ،
١٩٨٠ .

عبد الجليل التميمي (دكتور) : الخلفية الدينية للصراع الإسباني العثماني على الولايات المغربية في القرن السادس عشر ، المجلة التاريخية المغربية ، عدد (١٠ - ١١) تونس ، يناير ١٩٧٨ .

— عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم (دكتور) : — المغاربة في مصر في العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨ دراسة في تأثير الجالية المغربية من خلال وثائق المحاكم المصرية ، المجلة التاريخية المغربية ، تونس ١٩٨٢ .
— معالم التاريخ الاوربي الحديث والمعاصر ، دار المتقيين للنشر والتوزيع الدوحة ، ١٩٨٢ .

— العلاقات الاقتصادية والاجتماعية بين الولايات العربية أيام العصر العثماني ١٥١٧ - ١٧٩٨ ، المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، جامعة الكويت ، العدد التاسع ، المجلد الثالث ١٩٨٣ .

— عبد العزيز محمد الشناوى (دكتور) : أوروبا في مطلع العصور الحديثة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٧٧ .

— الدولة العثمانية دولة اسلامية مفترى عليها ، ثلاثة أجزاء ، مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٣ .

— عبد المنعم ماجد (دكتور) : عصر البيوطري ، بحوث القيمة في

الندوة التي أقامتها المجلس الأعلى لرعاية الفتنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التأريخية ونشرتها الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٦ .

— طومان باي آخر سلاطين المماليك في مصر ، دراسة للاسباب التي أنهت حكم دولة سلاطين المماليك في مصر ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٦٨ .

— العقيلي ، محمد بن أحمد عيسى : تاريخ المخلاف السليماني أو الجنوب العربي في التاريخ ، جزآن ، الجزء الأول طبع بمطابع الرياض (١٣٧٨/١٩٥٨) ، الجزء الثاني طبع بمطابع دار الكتاب العربي بالقاهرة (١٣٨٠ - ١٩٦١) .

— عمر عبد العزيز عمر (دكتور) : دراسات في تاريخ العرب الحديث دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧٦ .

— فاروق عثمان أباذه (دكتور) : التناقض الدولي في جنوب البحر الأحمر في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ندوة البحر الأحمر في التاريخ والسياسة الدولية المعاصرة ، أبحاث الأسبوع العلمي الثالث ١٠ - ١٥ مارس ١٩٧٩ ، سمنار الدراسات العليا للتاريخ الحديث بجامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٨٠ .

— قاسم عبد قاسم (دكتور) : أهل الذمة في مصر العصور الوسطى دراسة وثائقية ، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٧٩ .

— ليلى صباغ (دكتورة) : الوجود المغربي في المشرق المتوسط في العصر الحديث ، المجلة التاريخية المغربية ، العدد ٧ سم ، تونس ، يغادر ١٩٧٧ .

- ليلى عبد اللطيف أحمد (دكتورة) : الادارة في مصر في العصر العثماني
مطبعة جامعة عين شمس ، القاهرة ١٩٧٨ .
- دراسات في تاريخ ومؤرخى مصر والشام ابان العصر العثماني ،
مكتبة الخانجي بمصر ، ١٩٧٩ .
- محمد احمد أمين (دكتور) : تقويض من عصر العادل طومان باي
« صانع السلاطين » ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد
السابع والعشرون ١٩٨١ .
- محمد رفعت : تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية .
دار المعارف بمصر ، القاهرة ١٩٥٩ .
- محمد عبد العال احمد (دكتور) : أضواء جديدة على ملاح فاسكو
دى جاما ، مجلة معهد الدراسات والبحوث الافريقية بجامعة القاهرة ،
العدد الخامس ١٩٧٦ .
- البحر الاحمر والمحاولات البرتغالية الاولى للسيطرة عليه ، نصوص
جديدة مستخلصة من مشاهدات المؤرخ اليمنى بامخرمة كما سجلها
في مخطوط « قلادة النهر » دراسة وتحقيق ، الهيئة المصرية العامة
للكتاب ، الاسكندرية ١٩٨٠ .
- محمد عبد اللطيف البحراوى (دكتور) : فتح العثمانيين عدن
وانتقال التوازن الدولى من البر الى البحر ، مكتبة دار التراث ، القاهرة
١٩٧٩ .
- محمد محمود السروجى (دكتور) : سياسة مصر العربية في النصف
الثانى من القرن التاسع عشر ، ثورة العسir ١٨٦٤ - ١٨٦٦ ، مجلة كلية
الاداب بجامعة الاسكندرية ، المجلد التاسع ، ديسمبر ١٩٥٥ .

- المباري ، زين الدين المعبدى : تحفة المجاهدين في بعض أحوال البرتغاليين ، نشرة داود لويس لشبونة ١٨٩٨ .
- نعيم زكي فهمي (دكتور) : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، أوآخر العصور الوسطى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ .
- نقولا زيادة (دكتور) : الطرق التجارية في العصور الوسطى ، مقال نشر بمجلة تاريخ العرب والعالم ، السنة السادسة ، العددان ٧١ - ٧٢ - سبتمبر - أكتوبر ١٩٨٤ ، بيروت .
- المدايني ، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب : صفة جزيرة العرب ، مطبعة المساعدة ، القاهرة ١٩٥٣ .
- الواسعى ، عبد الواسع بن يحيى : تاريخ اليمن المسمى فرجة المعموم والحزن في حوادث وتاريخ اليمن ، ط٢ ، مطبعة حجازى بالقاهرة ١٩٤٧ .

كتباً — مصادر و مراجع باللغات الأجنبية

(ا) وثائق منشورة

- Aitchison, C. U.: A Collection of Treaties, Engagements, and Sanads relating to India and the Neighbouring Countries, 12 Vols., Calcutta 1892.
- Hurewitz, J. C. : Diplomacy in the Near and Middle East, 2. Vols, New York, 1956.

(ب) بحوث و مؤلفات منشورة

- Alvarez, F. : Narrative of the Portuguese Embassy to Abyssinia during the years 1520 - 1527, Translated and Edited by Lord Stanley of Alderly London, Haklyot Society, 1881.
- Atkinson, W. C.: A History of Spain and Portugal, Pelican B. 1970.
- Charles, Roux, F.: Autour d'une route, L'Angleterre, L'Isthme de Suez T. 1 - 2 , Paris 1901.
- Combe, E. : Precis de, l'Histoire d'Egypte, T. 3. L'Egypte Ottoman de la Conquet par Selim I. 1517 a l'Arrivee de Bonaparte 1798 .
- Coupland, R.: East Africa and Its Invaders, Oxford, Clarendon press, 1938.
- Crouchley, M. E.: The Economic Development of Modern Egypt. Longmans, Green and Co., London, 1938.
- Denison, R. E.: The Portuguese in India and Arabia, J. R. A. S., part 1., January 1922
- Epstein, M. : Early History of the Levant Company.
- Ferrand, D.: Le Pilote Arabe de Vasco de Gama et les instructions nautiques des Arabes au XVe Siecle, Annales de geographie, Paris, 1922.

- Fisher, H. A. L.: *History of Europe*, London 1945.
- Hammer, J.: *Histoire de l'Empire Ottoman, depuis son origine jusqu'à nos jours*; Tomes 18, Paris, 1836.
- Heyd, W.: *Histoire du Commerce de Levant au Moyen Age*, T. I. & II. Leipzig 1925.
- Holt, P. M.: *Egypt and the Fertile Crescent 1516 - 1922, A Political History* Cornell Univ. Press. New York, 1969.
- Hoskins, H. L.: *British Routes to India*, London, 1928.
- «The Growth of British Interest in the Route to India» Tufts Coll., Mass., U. S. A. *Journal of Indian History*, II.
- Howe, Sonia, E.: *In quest of Spices*, London 1946.
- Hunter, F. M.: *An account of the British settlement at Aden*, London, Turbner and Co., 1877.
- Johnston, H.: *History of the Colonization of Africa by Alien races*, Cambridge, 1899.
- Kammerer, A.: *La Mer Rouge, l'Abyssinie et l'Arabie depuis l'Antiquité*. Le Caire, l'Imprimerie de l'Institut Français d'Archéologie Orientale, pour la Société Royal de Géographie d'Egypte, 1929, - 1935.
- Lane-Poole, S.:
- *Medieval India Under Mohammedan Rule*. D. 712. 1764. London 1925.
- *A History of Egypt in the Middle Ages*, London 1936.
- Marston, T. E.: *Britain's Imperial Role in the Red Sea Area*, 1800 - 1878. The Shoe String Press, Inc. Hamden, Connecticut, U. S. A.
- Phillips, C. H.: *The East India Company 1784 - 1834*.
- Playfair, R. L.: *A History of Arabia Felix or Yemen. Selections from the Records of the Bombay Government*, New Series, XLIX.

- Plowden, W.: Travels in Abyssinia and the Galla Country, London,, Longmans, 1868.
- Prestage, E. : The Portuguese Pioneers, London, 1962.
- Rabbath, E. : Mer Rouge et Golfe d'Aqaba dans 'evolution du Droit International, Societe Egyptienne de Droit International, Janvier, 1962.
- Ross, E.D. : The Portuguese in India and Arabia between 1507 -1517, Journal of the Royal Asiatic Society, London, Part IV, October 1921.
- Sauger, R. H.: The Arabian Peninsula, Cornell Univ. Pr., New York, 1954.
- Scott, H.: In the High Jemen, Murray, 1942.
- Serjeant, R. B.: The Portuguese off the South Arabian Coast, Hadrami Chronicles with yemeni and European Accounts of Dutch Pirates off Mocha in 17 th Century, Oxford, Clarendon Press, 1963.
- Shaw, S. J.: The financial and administrative organization and development of Ottoman Egypt, 1517 - 1798, Princeton, New Jersey; 1964.
- Stephens, H. M.: Portugal, London, T. Fisher Unwin, 3 Edition, 1891.
- Strandes, J.: The Portuguese period in East Africa, Translated by Wallwork, Nairobi.
- Stripling, G. W. F. : The Ottoman Turks and the Arabs, 1511- 1574, University of Illinois Press., Urbans, U.S.A.
- Strong, A.: The History of Kilwa, Journal of the Royal Asiatic Society, London, 1895.
- Wiet, G.: L'Egypte (Arabe, Histoire de al Nation Egyptienne), T. IV. paris, 1934 .
- Wilson, A. T.: The persian Gulf, London 1954.
- Ziada, M. M. : Foreign Relations of Egypt in the Fifteenth Century, 2 Vols. Liverpool 1930.

محتوى البحث

ـ مقدمة :

١

هدف البحث ، ومنهجه ، ومصادره .

ـ الفصل الأول :

التجارة العالمية عبر مصر وعالم البحر المتوسط قبل تحولها
إلى طريق رأس الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس

٥

عشر الميلادي

ـ الفصل الثاني :

دور البرتغاليين في تحويل التجارة العالمية إلى طريق رأس

٣٧

الرجاء الصالح في نهاية القرن الخامس عشر الميلادي .

ـ الفصل الثالث .

أثر تحول التجارة العالمية إلى طريق رأس الرجاء الصالح
على مصر وعالم البحر المتوسط أثناء القرن السادس

عشر الميلادي :

٤٧

أولاً — الأثر الاقتصادي

٦٤

ثانياً — الأثر السياسي والدبلوماسي .

ثالثاً — الأثر الاستراتيجي في البحر المتوسط والبحار

٩٣

الشرقية

ـ الملحق :

عشرون وثيقة مختارة من أرشيف الشهر العقاري

بإسكندرية تخص محكمة الإسكندرية الشرعية وتعلق

بالنشاط التجاري للمغاربة والأوروبيين في الإسكندرية في

١٣٩

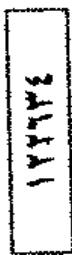
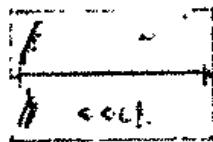
منتصف القرن العاشر الهجري والحادي عشر الميلادي .

١٦٥

ـ ثبت المصادر والمراجع

١٩٩٦/١٩٩٩	رقم الإيداع
ISBN	الترقيم الدولي
٩٧٧-٥٢-٤٣٤٨-٥	٣/٤٢/٣٥

طبع بطباعة دار المعرف (ج.م.ع.)



To: www.al-mostafa.com